أيام مع نزار قباني

غريد الشيخ

أيام مع نزار قباني

النخبة
للأبحاث والترجمة والنشر

الطبعة الإلكترونية 2012

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة



بيروت ـ لبنان

تلفاكس:009611749936

تلفون: 009613482587

E-mail: alnokhba4@hotmail.com

ISBN 978-9953-518-30-5

الإخراج وتصميم الغلاف: غريد جحا

تقديم

في الظّن أنّ (نزار قباني) مثله في ذلك مثل المتنبي، سوف يظلّ وعلى مدى الأجيال يشغل الدّنيا ويثير عواصف من الجدل، ويجمع من الأنصار مثلما يجمع من الخصوم، وليس صحيحًا، وأجزم، ما ادّعاه أحد النّقاد (د. ماهر شفيق فريد في الصّفحة الأدبيّة من جريدة «المساء» التي يشرف عليها الأستاذ محمد جبريل) من أنَّ نزار أكذوبة كبرى إذ ليس له، فيما ادّعى، إلا قصيدة أو قصيدتين. قصيدتان، على الأكثر؟ وإذن فماذا نقول في هذا الكمّ من الرّوائع التي أسمعتنا إيّاها هذه البُنَيَّة ـ اللَّطيفة، المشاغبة نوعًا ما، والتي اقتحمت على نزار عالمه الحميم وجاءت في دروب إبداعه وصولاته وجولاته، بهذا الفيض من الرّهافة والنّعومة واستطاعت في ذكاء أن تستخلص أغلى دراري فنّ وألمعيّة وعذوبة نزار.

ومن المهم جدًا أن نتهيّأ سلفًا لتفهّم (الجوّ) الذي سوف يتوجّه إليه قارئ رغد أو بالأحرى غريد الشيخ، إنه ـ قطعاً ـ بعيد عن الأكاديمية وعن الابستمولوجية وعن كل الاصطلاحات العويصة والدهاليز الغامضة المعتمة، فالتّوجه الأساسي للكاتبة أنها ترسم للقارئ العادي ملامح الشّخصية والفن، بل إنها ومن منطلق وعيها بما تريد استعارت إطارًا قصصيًّا بسيطًا طريفًا مفعمًا بالمودّة والحس الواقعي والحار الذكي، وقد جرّبت هذا الأسلوب من قبل في كتاب

لطيف بديع عن جرير ونجحت فيه أيّما نجاح، فما الذي يمنع أن تطبّق هذا المنهج على نزار قباني، بل وعلى غيره أيضًا؟

والشيء الذي ألفتُ إليه النّظر أن طابع (السّهولة) الذي يهيمن على الكتاب طابع مراوغ، فهو سهل حقًا في موضوعه وفي تأليفه وفي نهجه العام، لكن من الواضح أنها سهولة ترتكز على قراءة مستفيضة ووعي ذكي بنزار وشعره.

إنَّها سهولة الوردة التي تطلّ على الكون هكذا: تلقائية ويانعة وبدون ادِّعاء، لكي يتسلّل عبقها إلى الرّوح ويسكن في صميم القلب. هكذا يأتي كتاب غريد الشّيخ معزوفة حلوة فيها من رومانسية الحلم ومن نكهة الواقع مثلما في شعر وفي حياة نزار قباني.

محمد زكريا عناني

1999/12/7

أبطال القصّة

نزار قباني: الشّاعر السوري الكبير (1923 ـ 1997م).

رغد: شابة في حوالي الثلاثين من عمرها، سمراء اللون، شعرها أسود طويل، تحضّر للدكتوراه وتعمل في تحقيق دواوين الشعر وتكتب القصص عن الشّعراء، تتعامل مع الشّعراء الذين تدرسهم وتكتب عنهم برومانسية ومحبّة.

نبيل: خطيب رغد، شاب في حوالي الأربعين، يعمل مهندسًا ويهتم بالأدب والشّعر.

في المنزل الدِّمَشقِيّ

تسير رغد في حارات دمشق الضّيقة، تصل إلى سوق البزورية، أكثر أسواق دمشق تأثيرًا في الأنف والنفس معًا.. تعبق روائح الفلفل والقرفة والورد والعصفر وعشرات الأعشاب الطيّبة الرّائحة واللّون.. تقترب من أحد المحلات تشتري علبة من «الرّاحة الشّامية» التي يحبها، تحملها كما تحمل الأم لطفلها هدية مميّزة.

تقترب من البوابة الخشبية الصّغيرة وقبل أن تطرقها تنفتح دالّةً أن أحدًا ما في انتظارها. سمفونية من الضّوء والظلّ والرخام تبدأ باستقبالها.

ها هي شجرة النّارنج، كما حَدَّث عنها، تحتضن ثمارها.

والدّالية حامل..

أما الياسمينة فقد ولدت ألف قمر أبيض وعلّقتها على قضبان النّوافذ.

تقترب من البركة في وسط الدّار، ما زالت أُسود الرخام تملأ فمها بالماء وتنفخه.

وردٌ بلديٌّ أحمر، وليلكةٌ تُمشِّط شعرها، وعشرات الورود الدمشقيّة المتنوعة الألوان والعطور تفاجئها من زاوية أو أخرى.

جلست رغد على كرسي في وسط الدّار ووضعت أوراقها على الطّاولة..

نزلت بضع حماماتٍ إلى السّاحة وبدأت تتجوّل باطمئنانٍ وسكينة..

سعلةٌ خفيفة صدرت من وراء أحد الأبواب وكأنَّ صاحبها يعلن نبأ قدومه، توجّهت رغد إليه: أهلاً بك يا سيدي.

نزار: أهلاً بك.

رغد تنظر بإعجاب حولها وتقول: أخيرًا رأيتُ الدّار الدمشقية التي طالما

قرأت عنها في شعرك ونثرك..

ينظر حوله باستمتاع كليّ وهو يقول مفتخرًا:

«وُلِدْتُ في دمشقْ
بين خصاص الفُلِّ
والخُبَيزة الخضراء
والنّرجس
والأضاليا
ولم يزل في لغتي
شيءٌ من القِرفةِ، والكمّونِ، والبَهارْ»

نعم.. ضمن هذا الحزام الأخضر وُلدتُ وحبوتُ ونطقتُ كلماتي الأولى، تخيّلي أن يكون قدرُ الإنسان أن يصطدم بالجمال يوميًا..

يومَ كنت صغيرًا كنت إذا تعثّرت أتعثّر بجناح حمامة، وإذا سقطت أسقط على حضن وردة..

قاطعتْه: أجمل سقوط.

يسألها فجأة: هل تظنّين أن في العالم عطرًا يفوقُ عطر بيتنا؟!

تهزّ رأسها بإيجاب بينما تتنشق الرّوائح العطرة التي تفوح من كل جانب.. تنظر إلى قطّة ممتلئة تتمدّد على أحد الأدراج الرخاميّة، والحمائم تتمايل دون خوف أو وَجل يقول: كلُّ مَنْ في هذا البيت يعيش حريّة كاملة، الحمائمُ تهاجرُ وتعود على كيفها ولا أحد يسألُها ماذا تفعل والسّمكُ الأحمر يسبح على كيفه ولا أحد يسأله إلى أين..

تقاطعه: وصفائح الفلّ؟..

يبتسم ويقول: عشرون صفيحة فُلٍّ هي ثروة أمي، كلُّ زرٍّ يساوي صبيًّا من أولادها.. تصوّري، وبشقاوة الطفولة، عندما كنّا نغافلها ونسرق واحدًا منها كانت تبكي وتشكونا إلى اللـّه.

رغد: إنه العالم كلّه..

نزار: بيتنا هو واحتي، مشتايَ ومَصْيَفي.. إنّه صديقي الدّائم.

رغد: مظلّة الفيء، والرطوبة كما تُسمّيه؟

نزار: بالضبط.. هذا البيت المظلّة ترك بصماته واضحة على شِعري، كما تركت غرناطة وقرطبة وإشبيلية بصماتها على الشِّعر الأندلسيّ.

رغد: والعالم الخارجي، بماذا أثَّر فيك؟

نزار: المنزل كان بالنسبة لي هو حدود العالم، لقد استحوذ بيتنا الجميل على كلّ مشاعري وأفقدني شهيّة الخروج إلى الشّارع.

رغد: إذن، فالدّار هي المفتاح لشِعرك والمدخل الصّحيح لفهمه..

نزار: نعم.. إن اللّغة الشاميّة التي تتغلغل في مفاصل كلماتي، تعلّمتها في البيت المظلّة، فقد امتلأت طفولتي رطوبة، ودفاتري رطوبة، وامتلأت أبجديتي رطوبة.

رغد: إنّ قصائدك هي حدائق مليئة بالألوان والعطور والهمسات.

نزار: لأنّ آلاف النباتات الدّمشقية، هذه التي ترينها أمامك، لا تزال تتسلّق على أصابعي كلّما أردت أن أكتب، إلى كلّ فنادق العالم التي دخلتُها، حملت معي دمشق ونمتُ معها على سرير واحد.

«مسقطُ رأسي في دمشقَ الشامْ
حيث البيوتُ امرأة عاريةٌ
على بياضِ نهدِها..

تراهقُ الأنهارْ
معجزةٌ أن يولَدَ الإنسانُ في مدينةٍ
ترمي على أكتافه
في الصيفِ، آلافاً من الأَقمارْ»

تخرج رغد علبة «راحة الحلقوم» وتقدِّمها له: آسفة لقد نسيت بحضرة الجمال المحيط أن أقدّم هذه الحلوى التي تحبها.

نزار: أشكرك، إنها هدية لطيفة.

فتح العلبة، قدّم لها قطعة وأخذ واحدة وبدأ يلتهمها كطفل صغير..

نزار: هل تريدين بعض القهوة؟

هزّت رأسها بالإيجاب..

قال: حسنًا بإمكانك أن تدخلي إلى هذه الغرفة وتطّلعي على الكتب الموجودة فيها ريثما أُعدّ القهوة لكلينا.

مشت نحو الغرفة المقابلة، دخلتها، ودُهشت بالمكتبة الكبيرة التي تضم الكثير الكثير من كتب الأدب القديمة والحديثة..

نظرت إلى الصور المعلّقة على الحائط، تقدّمت إلى صورة والدة نزار قباني، أمعنت النظر بها.. قالت مكلّمة نفسها: عندك سرّ هذه الشخصية المميزة..

جاءها صوته من ورائها: أمي كانت ينبوع عاطفة يعطي بلا حساب..

كبرتُ وظللتُ في عينيها دائمًا طفلها الضّعيف القاصر، ظلّت ترضعني حتى سنّ السابعة، وتطعمني بيدها حتى الثالثة عشرة، سافرتُ إلى جميع قارّات الدّنيا وظلّت مشغولة البال على طعامي وشرابي ونظافة سريري.

رغد مبتسمة: لهذا كانت ترسل لك طرود الأطعمة الدمشقية إلى

السّفارات التي كنت تعمل بها؟
يبتسم ويغمض عينيه وكأنه يريد استحضار صورتها في ذاكرته:
كانت تعتبرني ولدها المفضّل، وتخصّني دون سائر إخوتي بالطيّبات وتلبّي مطالبي الطفولية بلا شكوى ولا تذمّر.
قاطعته: وعلى الصعيد الفكري..
ابتسم وقال: لا.. لا.. لم يكن بيني وبين أمي أي نقاط التقاء، فلقد كانت مشغولة بعبادتها وصومها وسجّادة صلاتها، تسعى إلى المقابر في المواسم، وتقدّم النذور للأولياء، وتطبخ الحبوب في عاشوراء، وتعلّق أحجار الفيروز الأزرق في رقبة كل واحد منّا خوفًا عليه من عيون الحاسدين.
رغد: إن رسائلك إلى أمك تذوب حنينًا إليها وشكوى من الغربة ومن النساء هناك لأنهن لايعرفن كيف يمشطن شعرك الأشقر وكيف يأخذن بيدك إذا تعثرت في الطريق..
نزار: سأقرأ لك القصيدة التي كتبتها إليها بعد سفري..

«صباحَ الخير.. يا حلوَهْ..
صباحَ الخير.. يا قدّيستي الحلوهْ..
مضى عامان يا أمي،
على الولد الذي أبحرْ
برحلته الخرافيّهْ
وخبّأ في حقائبه
صباح بلاده الأخضرْ
وأنجمَها، وأنهرَها، وكلّ شقيقها الأحمرْ

وخبَّأ في ملابسه
طرابيناً من النعناع والزعترْ
وليلكةً دمشقيّهْ

أنا وحدي
دخان سجائري يضجرْ
ومني مقعدي يضجرْ
وأحزاني عصافيرٌ، تفتّشُ بعدُ عن بيدرْ
عرفتُ نساءَ أوروبا
عرفتُ عواطفَ الإسمنتِ والخشبِ
عرفتُ حضارةَ التعبِ
وطفتُ الهندَ، طفتُ السندَ
طفتُ العالمَ الأصفرْ
ولم أعثرْ
على امرأةٍ تمشّطُ شعريَ الأشقرْ
وتحملُ في حقيبتها إليَّ عرائسَ السُّكَّرْ
وتكسوني إذا أعرى
وتنشلني إذا أَعْثُرْ
أيا أميّ. أنا الولدُ الذي أبحرْ
ولا زالت بخاطره
تعيش عروسةُ السُّكَّرْ
فكيف.. فكيف يا أمّي
غدوتُ أبًا. ولم أكبَرْ؟»

تقاطعه رغد: أنتَ تطلب في كلّ امرأة تعرفها أن تعاملك كما كانت أمك تفعل، هل تعتقد أن فشل زواجك الأول وعزوبتك الطويلة قبل زوجك الثاني هو الذي أيقظ الطفل الكامن في أعماقك فشعرت بحاجتك إلى الأم القادرة على حمايتك من الأذى والأخطار؟

نزار يهزّ رأسه ويقول: لا أعرف السبب ولكن حنيني الدائم إلى صدر أمي، إلى بيتنا الجميل إلى كلّ ما في حياتي القديمة كان طاغيًا..

«صباحَ الخير من مدريدَ
ما أخبارها الفُلَّهْ؟
بها أوصيكِ يا أمّاهُ
تلك الطفلة الطفلَهْ..
فقد كانت أحبَّ حبيبةٍ لأبي
يدلِّلُها كطفلته..
ويدعوها إلى فنجانِ قهوتِهِ
ويسقيها، ويُطعمها
ويغمرها برحمتِهِ
ومات أبي..
ولا زالت تعيشُ بحلم عَوْدتِهِ
وتبحث عنه في أرجاء غرفته
وتسأل عن عباءتِهِ
وتسأل عن جريدته
وتسأل حين يأتي الصيفُ عن فيروزِ عينيهِ

لتنثرَ فوق كَفَّيْهِ..
دنانيرًا من الذّهبِ..

سلاماتٌ.. سلاماتُ
إلى بيتٍ سقانا الحبَّ الرَّحمهْ
إلى أزهارك البيضاء
فرحةِ «ساحة النجمهْ»
إلى تختي، إلى كتبي
إلى أطفال حارتنا..
وحيطانٍ ملأناها بفوضى من كتابتنا
إلى قططٍ كسولاتٍ
تنام على مشارقِنا
وليلكةٍ معرِّشةٍ على شُبّاك جارتنا
مضى عامان.. يا أمّي
ووجهُ دمشقَ..
عصفورٌ يُخربشُ في جوانِحنا
يعضُّ على ستائِرنا
وينقرنا، برفقٍ، من أصابِعنا
مضى عامان يا أمي
وليلُ دمشقَ.. فلٌّ دمشقَ
دورُ دمشقَ
تسكن في خواطرنا

مآذنِها.. تضيءُ على مراكبنا
كأنَّ مآذنَ الأمويّ قد زُرعتْ بداخلنا
كأن مشاتلَ التفّاح تعبقُ في ضمائرنا
كأن الضوءَ والأحجارَ
جاءتْ كلُّها معنا.
أتى أيلول أُمّاهُ..
وجاء الحزنُ يحملُ لي هداياهُ
ويتركُ عند نافذتي
مدامعَهُ وشكواه
أتى أيلولُ أين دمشقُ؟
أين أبي وعيناهُ؟
وأين حريرُ نظرتِهِ، وأين عبيرُ قهوتِهِ
سقى الرحمنُ مثواهُ
وأين رحابُ منزلنا الكبير.. وأين نعماهُ؟
وأين مدارجُ الشمشيرِ.. تضحكُ في زواياهُ؟
وأين طفولتي فيه..
أُجرجرُ ذيلَ قطّتِه..
وآكلُ من عريشتِهِ
وأقطف من «بَنَفْشاهُ»
دمشقُ.. دمشقُ..
يا شِعرًا..
على حدقات أعيننا كتبناهُ

ويا طفلاً جميلاً
من ضفائره صلبناهُ
جثونا عند ركبتهِ
وذُبنا في محبّتهِ
إلى أنْ في محبّتا قتلناهُ» .

رغد: رائع. رائع

نزار: كانت أمّي ملكة، وكُنّا أغلى رعاياها

تنقل رغد عينيها إلى صورة الأب وتقول: أنتَ تشبهه إلى حَدٍّ كبير.

يقول: الشَّبَهُ ليس بالملامح الخارجية، ولكن أيضًا بالملامح النفسية.

رغد: تأثّرت به؟

نزار: إنّه نموذج رائع للرجل الذي يرفض الأشياء المُسَلَّم بها، ويفكّر بأسلوبه الخاص. كان أبي فارسي وبطلي، ومنه تعلّمتُ سرقة النّار.

تسأل رغد: سرقة النّار؟

يبتسم نزار في تواضع، يهمس: ألا تذكرين الأسطورة اليونانية القديمة حول (برومثيوس) الذي تحدّى أقدار الآلهة وألقى على الناس بقبس من النار، متحمّلاً في سبيل ذلك العذاب والأهوال.

رغد: فالنار رمزٌ.

يتمتم نزار: لا شكَّ في ذلك، كما أن برومثيوس هو رمز للمفكِّر في كلِّ زمان ومكان، إنه يشقى ويعاني في سبيل الآخرين حتى ولو احترق في سبيل رسالته.

رغد: فوالدك يشكّل المثل الأعلى بالنسبة إليك شكلاً ومضمونًا.

نزار يبتسم ويتذكّر صورة والده: عيناه الزرقاوان كانتا صافيتين كمياه بحيرةٍ سويسرية، وقامته مستقيمة كرمح رومانيّ وقلبه كان إناءً من الكريستال يتّسع للدنيا كلّها.

رغد: يقولون إنك تنتمي إلى الطبقة البورجوازية والسلالات ذات الدم الأزرق؟

ينظر إليها بتأكيد ثم ينظر حوله ويقول: طبعًا لا.. إن أسرتنا من الأسر الدّمشقية المتوسطة الحال، لم يكن أبي غنيًا ولم يجمع ثروة.. وإذا أردت تصنيف أبي فأنا أصنّفه دون تردد بين الكادحين لأنه أنفق خمسين عامًا من عمره يستنشق روائح الفحم الحجري، ويتوسّد أكياس السكّر، وألواح خشب السّحاحير، وكان يعود إلينا من معمله كلّ مساء تحت مياه المزاريب الشتائية كأنه سفينة مثقوبة.

إني أتذكّر وجه أبي المطلي بهباب الفحم وثيابه الملطّخة بالبقع والحروق، كلّما قرأتُ كلام من يتهمونني بالبورجاوازية والانتماء إلى الطبقة المرفّهة.

رغد: ولكنك رغم تأثرك الكبير بأبيك وإعجابك بشخصه إلا أنك في كثير من الأحيان تعلن العصيان على السلطة الأبوية بما تمثّله من قيم عفا عليها الزمن فأنت تقول:

«أفتح صندوق أبي، وأُمزِّق الوصيهْ
أسحب سيفي غاضبًا وأقطع الرؤوس والمفاصلَ المرضيهْ
أفتح أيام أبي.. أرى الذي ليس يرى
أدعية.. حشائش طبيّه
أدوية للقدرة الجنسيهْ»

نزار بعد تفكير عميق: لا أعرف إن كان انتحار أختي وصال من أجل الحبّ هو السبب في ثورتي الدّاخلية ضدّ أبي والمجتمع الرجولي..
صورتها ما زالت محفورة في لحمي، لا أزال أذكر وجهها الملائكي وقسماتها النورانية وابتسامتها الجميلة وهي تموت.
حين مشيتُ في جنازتها.. وأنا في الخامسة عشرة، كان الحب يمشي إلى جانبي في الجنازة، يشدّ على ذراعي ويبكي.
ربما كان موتها في سبيل الحب أحد العوامل التي جعلتني أتوفّر لشعر الحب بكل طاقاتي وأهبه أجمل كلماتي.
وهل كانت كتاباتي عن الحبّ تعويضًا لما حُرِمَتْ منه أختي وانتقامًا لها من مجتمع يرفض الحبّ ويطارده بالفؤوس والبنادق؟ لست أدري، كلّ ما أعرفه أن موت أختي العاشقة كسر شيئًا في داخلي وترك على سطح بحيرة طفولتي أكثر من دائرة وأكثر من إشارة استفهام.
تحاول تغيير الموضوع فتقول:
ـ أنت تقول إن حساسية عائلتكم منشؤها القلب؟
قال: نعم، كلّنا نعاني هذه الحساسية المفرطة أمام أشياء الجمال.
كان أبي إذا مرّ به قوام امرأة فارعة ينتفض كالعصفور وينكسر كلوح من الزّجاج، كان جبّارًا أمام الأحداث الجسام ولكن كان أمام وجه حسن التكوين يتحوّل إلى كوم رماد.
تتّجه رغد نحو المكتبة تنظر إلى دواوين الشّعر العربي وإلى مجموعة كتب لموليير وراسين وموسيه وهوغو..
يقول: لقد قرأت هؤلاء الأدباء في لغتهم الأصلية، وتذوّقت الأدب الفرنسي من منابعه..

رغد: والأدب العربي؟

ينظر إلى مجموعة كتب عليها اسم الشاعر خليل مردم بك.. يقول:

إن الفضل العظيم في زرع وردة الشعر تحت جلدي يعود لأستاذي الأول في الأدب خليل مردم بك، فقد هيّأ الخمائر التي كوّنت خلايايا وأنسجتي الشّعرية.. تعلمين.. لقد دلّنا هذا الأستاذ بإحساسه المرهف وحسن اختياره على طرقات ظليلة وواحات في الشّعر العربي أنستنا متاعب الرحلة..

رغد: فتكوّن لديكَ هذا المخزون الشّعري الكبير؟

نزار: لقد ربطني هذا الرّجل بالشّعر منذ اللحظة الأولى.. فكان يقطف لنا من شجرة الشّعر العربي عشر زهرات جديدة في كل درس من دروسه، حتى صارت ذاكرتنا الشّعرية في نهاية العام بستانًا يموج بالأخضر والأصفر والأحمر..

تنظر رغد إلى ساعتها: أوه، لقد مرَّت الساعات بسرعة وقد أخذت من وقتك الكثير..

نزار: أنا سعيد بحريتي في الكلام وبحسن استماعك..

رغد: حسنًا، أنا مسافرة غدًا إلى بيروت..

نزار: أوه.. بإمكاني مرافقتك فلديّ بعد يومين أمسيّة شعرية هناك.

رغد: حسنًا.. سأمرّ بك غدًا في السّابعة صباحًا.

نزار: إلى اللقاء غدًا..

شامُ، يا شامةَ الدنيا

في اليوم التالي نزار مع رغد في سيارتها يطلبُ منها أن تتخذ الطّريق القديم إلى بيروت والذي يمرّ من دمّر والهامة..
في الطريق يخرج ورقة صغيرة من جيبه ويبدأ بإنشاد الشعر..

لقد كتبنا وأرسلنا المراسيلا
وقد بكينا.. وبلّلنا المناديلا
قل للذين بأرض الشام قد نزلوا
قتيلُكم لم يزلْ بالعشق مقتولا
يا شامُ، يا شامةَ الدنيا، ووردتها
يا مَنْ بِحُسْنِكِ أوجعتِ الأزاميلا
وَدِدْتُ لو زرعوني فيك مئذنةً
أو علّقوني على الأبواب قنديلا
يا بلدة السبعةِ الأنهار.. يا بلدي
ويا قميصاً بزهر الخوخ مشغولا
ويا حصاناً تخلّى عن أعِنَّتِهِ
وراح يفتح معلوماً، ومجهولا
هواك يا بردى، كالسيفِ يسكنني
وما ملكتُ لأمر الحبّ تبديلا
ما للدمشقيّةِ الكانتْ حبيبتَنا

لا تذكـرُ الآنَ طعـمَ القُبلـةِ الأولى
أيّـامَ في دُمَّـر كُنّـا.. وكان فمـي
علـى ضفائرهـا.. حفـراً.. وتنزيـلا
والنهـرُ يُسمِعنـا أحلـى قصائـدِه
والسَّـرْوُ يلبسُ بالسّـاق الخلاخيـلا
يا مَنْ علـى ورق الصفصـافِ يكتبني
شِعـراً.. وينقشنـي في الأرضـ أيلولا
يا مَـنْ يعيـد كراريسـي.. ومدرستي
والقمـحَ، واللّـوزَ، والـزُّرقَ المواويلا
يـا شـامُ، إن كنـتُ أُخفـي مـا أكابدُهُ
فأجمـلُ الحبّ حُبٌّ ـ بَعْـدُ ـ ما قِيلا..»

رغد: اللّـه.. كم هو رائع هذا الشعر كما روعة دمشق وبساتينها وطبيعتها.

نزار: أنا أعشق الطّبيعة وخصوصًا طبيعة دمشق التي انتقلت معي في كلِّ مكان أذهب إليه، ولكن الطبيعة كعالم منفصل لم تلعب في شعري دورًا هامًا فالإنسان بالنسبة لي أهّم منها وأقوى حضورًا.

رغد: ولكنك كتبت عن النجومِ والغيوم والبحار والغابات؟

نزار: نعم.. ولكنني كنت دائمًا أربطها بعلاقة إنسانية ما، وبتعبير أوضح كنت أضع كل هذه الأشياء الجميلة تحت تصرّف المرأة التي أحبها وفي خدمتها.

ينطلق صوت فيروز من شريط تضعه رغد في المسجلة..

يغمض عينيه ويستمع إلى الصوت الملائكي:

«لا تسألوني، ما اسمُه حبيبي
أخشى عليكم ضَوْعةَ الطيوبِ
واللـَّه، لو بحتُ بأيِّ حرفٍ
تكدّسَ الليكُ في الدروبِ
لا تبحثوا عنه هنا بصدري
تركتُه يجري مع الغروبِ
ترونَهُ في ضحكة السواقي
في البحر، في تَنَفُّس المراعي
وفي غناء كلّ عندليبِ
في أدمع الشتاء حين يبكي
وفي عطاء الديمةِ السَّكوبِ
لا تسألوا عن ثغرهِ.. فهلاّ
رأيتمُ أناقةَ المغيب
ومقلتاهُ شاطئا نقاء
خصرُهُ تَهزهُزُ القضيب
محاسنٌ.. لا ضمَّها كتابٌ
ولا ادّعتها ريشةُ الأديب
وصدرُهُ ونحرُهُ. كفاكمْ
فلن أبوحَ باسمهِ حبيبي»

نزار: سعادتي تكون كبيرة جدًا عندما أسمع شعري ينطلق من حنجرة مميّزة وبألحان رائعة.. إنه تخليد للقصيدة وانتشار سريع لها..

تطلّ العربة بهما على أوّل الأراضي اللبنانية..
تنظر إليه رغد، تسأله: تحبّه؟
يقول بدون تردّد وبحرارة: كيف لا أحبّه، ولبنان هو الإناء الذي احتوى شعري وأعطاه شكله ولونه ورائحته..
في أرضه زرعت بذور قصائدي الأولى، فاحتضنها وأطعمها وسقاه حتى صارت غابة كثيرة الشجر ممدودة الأفياء..
يتلفت بحبّ وينظر إلى المسافات حوله وكأنه يريد احتضانها جميعًا في لحظة عشق:
صوتي مبعثرٌ على كل الترابات اللبنانية فما من قرية معلّقة على رأس جبل أو مستلقيةٍ على ذراع البحر إلاّ وحفرتُ على صخورها بعضًا من حروفي..
فمن بيروت إلى جونيه إلى طرابلس.. إلى صيدا إلى النبطية.. كنت أنتقل كشعراء التروبادور حاملاً قيثارتي وأوراقي..
أحسست دائمًا أنني أنتمي إلى العائلة الشّعرية اللّبنانية.
رغد: لقد قلت مرارًا إن قراءتك اللّبنانية في الأربعينيّات من التأثيرات الهامة في ثقافتك الشعرية..
نزار: نعم، بتنقلي من مفكرة أمين نخلة الرّيفية إلى بساتين بشارة الخوري وإلياس أبي شبكة وسعيد عقل.. تعلمت الخروج من البرّ الشّعري الذي لا يتحرّك إلى البحر الكبير بكل احتمالاته ومجاهيله.
يصلان إلى مدخل بيروت، بعض البنايات التي ما تزال آثار الحرب باديةً عليها، يهزّ رأسه أسفًا.. يقول:

«أين بيروتُ التي تختالُ بالقبعّةِ الزَّرقاءِ مثلَ الملكهْ؟!
أين بيروتُ التي كانت على أوراقِنا

ترقصُ مثلَ السَّمَكَهْ!

ذبحوها..

ذبحوها..

وهي تستقبل ضوءَ الفجرِ مثل الياسمينهْ

من هو الرّابحُ مِنْ قَتْلِ مدينهْ؟

ضيّعوا بيروت يا سيدتي

ضيّعوا أنفسهم إذ ضيّعوها..

سقطت كالخاتمِ السحريّ في الماء.. ولم يلتقطوها

طاردوها مثلَ عصفورٍ ربيعيٍّ إلى أن قتلوها»

تحاول رغد تغيير الجو المأساويّ الذي غمرَ الشّاعر، تقول: ولكنها عادت اليوم لترتديَ ثوبًا جميلاً.. عرف أبناؤها أن لا غنى لهم عنها.. انظر، ها هي قد بدأت تكتسي حلّةً جديدة.. ستعود.. ستعود..

نزار: حتّى لو عادت يا سيّدتي، هل يعود مَنْ فقدناهم في حربها العمياء.. هل تعود بلقيس وسعاد ومحمد وعيسى؟..

«يا بعيدهْ: أيّ أخبارٍ تريدين عن الشِّعْر وعنِّي؟!

أخذوا بيروتَ، يا سيِّدتي، منكِ ومني

سرقوا (الكورنيشَ).. والأصدافَ

والرّملَ الذي كان يغطّي جَسَدَيْنا

سرقوا منّا زمانَ الشِّعر، يا لؤلؤتي،

والكتاباتِ التي تسقطُ مثلَ الكرزِ الأحمرِ

من بين الأصابعِ

سرقوا رائحةَ البُنِّ
وأحلام المقاهي.. وقناديلَ الشَّوارعْ..»

رغد: رغم كلّ ما ذهب ومَنْ ذهب فإنَّ بيروت القلب الطيّب سامحت أبناءها الجاحدين وسامحت كلَّ مَنْ أحَبَّها بأنانية.

نزار:

«ما زلتُ أحبُّكِ يا بيروتَ المجنونَهْ
يا نهرَ دماءٍ وجواهرْ..
ما زلت أحبُّك يا بيروت القلبِ الطيِّبِ
يا بيروت الفوضى
يا بيروت الجوعِ الكافرِ.. والشَّبَعِ الكافرْ»..

رغد: كما نحبُّها جميعًا.. ها قد وصلنا لا بدَّ أن ترتاح قليلاً من آثار الرحلة المتعبة وسأعود في المساء لنتمشى على شاطئ البحر..

نزار: حسنًا.. إلى اللقاء مساءً.

تمرّ رغد في المساء فتجده بانتظارها، يركب بجانبها، وينطلق صوت كاظم الساهر بأغنية بيروت الحبّ والمطر.. يغمض نزار عينيه ويتذكّر اللحظات التي كتب بها القصيدة..

«انتقي أنتِ المكان
أيَّ مقهى، داخلٍ كالسَّيفِ في البحر،
انتقي أيَّ مكانْ
إنّني مستسلمٌ للبجعِ البحريِّ في عينيكِ
يأتي من نهايات الزَّمانْ

عندما تمطرُ في بيروتَ
أحتاجُ إلى بعض الحنانْ..

• • •

ليس في ذهني قرارٌ واضحٌ
فخذيني حيثما شئتِ
اتركيني حيثما شئتِ
اشتري لي صحفَ اليوم.. وأقلامَ رصاصٍ
ونبيذًا.. ودخانْ
هذه كلُّ المفاتيح.. فقودي أنت
سيري باتّجاه الرِّيح والصُّدْفةِ..
سيري في الزَّواريبِ التي من غير أسماءٍ
أحِبّيني قليلاً..
واكسري أنظمةَ السَّيْرِ قليلاً..
واتركي لي يَدَكِ اليمنى قليلاً
فذراعاكِ هما بَرَّ الأمانْ

• • •

ليس للحبِّ ببيروتَ خرائطْ
لا.. ولا للعشق في صدري خرائطْ
قرّري أنتِ إلى أين..
فإنَّ الحبَّ في بيروتَ مثلُ اللَّهِ في كلِّ مكانْ»

تنتهي الأغنية، يفتح عينيه وينظر إلى البحر، يحضنه يطلب منها أن يتمشّيا قليلاً..

يتنفسُ هواء البحر بعمق ويقول بفرح طفل قد وجد أُمَّه والمرأة التي أحبها:

«آه يا بيروتُ.. يا أُنثايَ من بين ملايين النساءْ..
يا رحيلاً برتقالياً على وردٍ.. وبرقوقٍ وماءْ..
يا طموحي، عندما أكتبُ أشعاري لتقريب السماءْ»

رغد: ماذا عن أمسية الغد؟

نزار: لقد حضّرت بعض القصائد التي سأقرأها، أنت تعلمين أنني أجد صعوبةً كبيرة في تذكّر شِعري وروايته، وأنا أشعر بغيرة حقيقيّة من الشعراء الذين ما إنْ يضغطوا زرًا مَن أزرار ذاكرتهم حتى يبدؤوا بالغناء بدقّة شريط مُسَجّل.

رغد: ألا تعتقد أن الذاكرة الشّعرية شرط أساسي في اللعبة الشعرية؟

نزار: أنا أتصوّر أن كتابة القصيدة شيء وتلاوتها أو استحضارها شيء آخر، فالكتابة برقٌ لا عمر له، والحفظ مَلَكة مكتسبة ورياضة ككلّ الرياضات التي تكتمل بالممارسة.

رغد: في عالم التكنولوجيا الحالي وعالم الأرقام والحسابات نظنّ أن الشّعر قد ضاع وانتهى، ولكن عند حضور أمسية شعريّة لك أو لبعض الشّعراء المميَّزين نحسّ أننا ما نزال تحت سيطرة عالم الشّعر والشّعراء.

يبتسم: الشعر يا عزيزتي لا ينتهي إلاّ إذا انتهت الحياة نفسها على هذا الكوكب الدائر، ونشفت البحار وانطفأت الكواكب.

أما ما دام هناكَ بحار تغزل الزرقة، ونجوم تهربُ من خيمتها لترقد على مخدّتي، ما دام هناك مشاوير لم تُمْشَ، ومواعيد لم تُعْطَ... ما دام هناك رياح تثور وشموس تدور ونجوم مفروطة عناقيد نور..

ما دام الإنسان السؤال منتصبًا على وجه هذه الأرض يحبّ ويكره، ويبكي ويضحك..

ما دام هناك عِقدٌ واحد في جوارير حبيبتي لم أكتشف لون حبّاته.. ما دام في خزانتها ثوب واحد لم يره فضولي بعد.. فلا فرار من الشّعر ولا انفلات من أصابعه السّاحرة.

يا عزيزتي، الحجارة في أرض الحجاز كانت بقيت حجارة لو لم يمسحها الشّعر العربي بأنامله المنعشة فيكسّر كلَّ حجر غلالة شوق ويسقي كلّ ذرّة رمل حمرة جرح من شرايين موعد.

رغد: والجمهور ما دوره في الإبداع الشّعري للشاعر؟

نزار: الشّعر إفراز جمالي، نزيف حروف ونجوم تتولد في شقّ ريشة، وهو بعد هذا وجه اللّه مرسوم على بياض ورقة، محفور في ضمير ورقة.. قدر القصيدة أن تقال وتُسمَع، فنيسانُ لا يستحي بأخضره وأحمره، نيسان لا يقيم معارضة تحت الأرض.

إن الفنون بأشكالها هي الجسور التي تربطنا بالآخرين، هي السّلالم الحريرية التي نتسلّقُ عليها لنعانق الآخرين..

رغد: أظنُّ أنَّ سلالمك الحريريّة قد استطاعت بإبداع أن تربطك بالجمهور دائمًا..

نزار: شكرًا لإطرائك.. ينظر إلى الساعة ويقول: السّاعة الآن التاسعة، بإمكانك أن تذهبي الآن وسأبقى أنا هنا وأكمل مشواري.

رغد مبتسمة: لا بدَّ أنَّ وحيّ الشّعر قد أتاك الآن.. حسنًا سأتركك ولكن سأعطيك بعض الأوراق من السّيارة قبل أن أذهب..

يجلس على مقعد حجري وينظر إلى البحر بينما تضع له الأوراق وتذهب بهدوء.

في اليوم التالي، القاعة مكتظّة بالجمهور من كلّ الأعمار والطبقات وباقة من الفتيات الصغيرات السنّ يجتمعن مع رفاقهنّ في المقاعد الأولى. يدخل

الشّاعر يحيّـي الجمهور وقبل أن يصعد إلى المنصّة تقترب منه الفتيات الشّابات ويخرجن دفاترهن الصغيرة الملوّنة ويطلبن منه أن يوقّع لهنّ ذكرى منه.. يفعل هذا ويوزّع ابتسامات حانية على الشّابات والشّباب ثم يعدهم بأنه سينشد شعرًا خاصًا لهم.

تبدأ الأمسية، يصمتُ الجميع بانتظار الشّاعر المحبوب، رغد جالسة بين الصفوف تنظر إليه بمحبّة وبين يديها مجموعة من الأوراق ومسجلاً صغيرًا لتسجيل الأمسية..

يبدأ الشاعر:

«آه يا عشّاقَ بيروتَ القدامى
هل وجدتم بعد بيروتَ البديلا؟
إنّ بيروتَ هي الأنثى التي
تمنحُ الخصبَ، وتعطينا الفصولا
إن يمتْ لبنانُ.. متُّمْ معه
كلُّ مَنْ يقتلُهُ.. كان القتيلا
إنَّ كونًا ليسَ لبنانُ به
سوفَ يبقى عَدَمًا أو مستحيلاً..
كلُّ ما يطلُبُه لبنان منكمْ
أن تحبّوه.. تحبّوه قليلاً»

تصفيق حادٌّ في القاعة، ثم يصمت الجميع في انتظار ما سيأتي..

يقول: سأقدم قصيدة من قصائدي القديمة لفتياتي الشّابات اللّواتي تُزَيِّنَّ الأمسية.

تصفيق من الشّباب والشّابات..
يبدأ الشّاعر: قصيدة لوليتا.

«صارَ عمري خمسَ عَشْرَهْ
صرتُ أحلى ألفَ مَرَّهْ
صار حُبّي لكَ أكبرْ
ألفَ مَرَّهْ..
ربّما من سَنَتَيْنْ
لم تكنْ تهتمُّ في وجهي المدوَّرْ
كان حُسني بَيْنَ بينْ..
وفساتيني تُغَطّي الرُّكبتين

• • •

كنتُ آتيكَ بثوبي المدرسيّ
وشريطي القرمُزيّ
كان يكفيني بأن تُهدي إليّ
دميةً.. قطعةَ سُكَّرْ..
لم أكنْ أطلبُ أكثرْ
وتَطَوَّرْ..
بعدَ هذا كلُّ شيءْ
لم أعُدْ أقنعُ في قطعةِ سُكَّرْ
ودُمىً.. تطرحُها بين يديّ
صارت اللّعبةُ أخطرْ
ألفَ مَرَّهْ

صرتَ أنتَ اللعبةَ الكبرى لَدَيّ
صرتَ أحلى لعبةٍ بين يَدَيّ
صار عمري خمسَ عشرهْ
صار عمري خمسَ عشرهْ
كلُّ ما في داخلي.. غَنّى وأزهرْ
كلُّ شيءٍ.. صار أخضرْ
شفتي خوخٌ.. وياقوتٌ مُكَسَّرْ
وبصدري ضحكتْ قُبَّةُ مرمرْ
وينابيعُ.. وشمسٌ.. وصنوبرْ
صارتِ المرآةُ لو تلمسُ نهدي تتخدّرْ
والذي كان سَوِيًّا قبل عامينِ تَدَوَّرْ
فتَصَوَّرْ..
طفلةُ الأمسِ التي كانت على بابكَ تلعبْ
والتي كانتْ على حضنكَ تغفو حين تتعبْ
أصبحتْ قطعةَ جوهرْ..
لا تُقَدَّرْ..
صار عمري خمسَ عشرهْ
صرتُ أجملْ
وستدعوني إلى الرقصِ.. وأقبَلْ
سوف ألتَفُّ بشالٍ قصبيّ
وسأبدو كالأميرات ببهوٍ عربيّ..
أنتَ بعد اليومِ لن تخجلَ فِيّ

فلقد أصبحتُ أطولْ
آهِ كم صلَّيتُ كي أصبحَ أطولْ
إصبعًا.. أو إصبعينْ
سنةً أو سنتينْ
آهِ.. كم ثرتُ على وجهي المدوّرْ
وذُؤاباتي.. وثوبي المدرسيّ
وعلى الحبِّ.. بشكلٍ أبويّ
لا تعاملني بشكلٍ أبويّ
فلقد أصبح عمري خمسَ عشرهْ»

القاعة تضجّ بالتصفيق ولا شيء إلا انتظار سماع التالي يسكت الجمهور خصوصًا الشّباب والشّابات الصغار..

الشّاعر يسعل قليلاً معربًا عن بدء القصيدة التالية:

السمفونية الجنوبية الخامسة:

«سمَّيْتُكَ الجَنُوبْ
يا لابسًا عباءةَ الحُسَيْنْ
وشمسَ كربلاءْ
يا شجرَ الورد الذي يحترفُ الفداءْ
يا ثورةَ الأرضِ التقت بثورةِ السّماءْ
يا جسدًا يطلعُ من ترابهِ
قمحٌ.. وأنبياءْ
اسمحْ لنا..

بأن نبوسَ السيفَ في يَدَيْكْ..
اسمح لنا..
أن نعبدَ اللَّهَ الذي يُطلُّ من عينيكْ
يا أيُّها المغسولُ في دمائه كالوردة الجوريَّهْ
أنتَ الذي أعطيتنا شهادةَ الميلادْ
ووردةَ الحريّهْ..

• • •

سَمَّيْتُكَ الجَنُوب..
يا مَنْ يُصَلّي الفجرَ في حقلٍ من الألغامْ
لا تنتظرْ من عربِ اليوم سوى الكلامْ
لا تنتظر منهم سوى رسائل الغرامْ

• • •

لا تلتفتْ إلى الوراء يا سيّدنا الإمامْ
فليس في الوراء غيرُ الجهلِ والظلامْ
وليس في الوراء غيرُ الطينِ والسُّخَامْ
وليسَ في الوراء إلا مدنُ الطُّروح والأقزامْ
حيثُ الغنيُّ يأكلُ الفقيرَ
حيثُ الكبيرُ يأكلُ الصغيرْ
حيثُ النظامُ يأكلُ النظام

• • •

سَمَّيْتُكَ الجَنُوبْ
سَمَّيتُكَ المياه والسنابلْ

وشتلةَ التبغ التي تُقَاتِلْ
ونجمةَ الغروبْ
سَمَّيتُكَ الفجرَ الذي ينتظرُ الولادهْ
والجسدَ المشتاقَ للشّهادهْ
يا آخر المدافعين عن ثرى طروادهْ
سمّيتُكَ الثورةَ، الدهشةَ، والتغييرْ
سمّيتكَ النقيَّ، والتقيَّ، والعزيزَ والقديرْ
سمّيتُكَ الكبيرَ أيُّا الكبيرْ
سمّيتكَ الجنوب.

• • •

سمّيتكَ الجنوبْ
يا أيُّها الطالعُ مثلَ العشبِ من دفاترِ الأيّامْ
يا أيُّها المسافرُ القديمُ فوق الشَّوكِ والآلامْ
يا أيُّها المضيءُ كالنجمةِ، والسّاطعِ كالحُسامْ
لولاكَ ما زلنا على عبادةِ الأصنامْ
لولاكَ كنا نتعاطى عَلنًا
حشيشةَ الأحلامْ
اسمح لنا بأن نبوسَ السيفَ في يدَيْكَ
اسمحْ لنا أن نجمعَ الغبار عن نَعلَيْكْ
لو لم تجئْ يا سيّدي الإمامْ
كُنَّا أمامَ القائد العبْريِّ
مذبوحينَ كالأغنامْ.

يا سيِّدي
يا سيِّد الأحرارْ:
لم يبقَ إلا أنتْ
في زمنِ السّقوطِ والدَّمارْ
في زمنِ التراجُعِ الثوريِّ
والتَّراجعِ القَوميِّ،
والتَّراجعَ الفكريِّ،
واللصوص والتُجَّارْ
في زمن الفرارْ
الكلماتُ أصبحتْ يا سيّدي الجَنوبْ،
للبيعِ والإيجارْ
والمفرداتُ يَشتغلنَ راقصاتٍ
في بلادِ النفطِ.. والدولارْ..
لم يبقَ إلا أنتْ
تسيرُ فوق الشَّوكِ والزّجاجْ
والإخوةُ الكرامُ..
نائمونَ فوقَ البَيضِ، كالدّجاجُ
في زمنِ الحربِ، يهربونَ كالدّجاجّ
يا سيّدي الجنوبْ:
في مُدُنِ الملحِ التي يسكنها الطاعونُ والغُبارْ
في مُدُنِ الموتِ التي تخافُ أن تزورَها الأمطارْ
لم يبقَ إلا أنتْ..

تسيرُ فوقَ الشَّوكِ والزجاجْ
والإخوةُ الكرامُ..
نائمونَ فوقَ البَيضِ، كالدْجاجْ
يا سيّدي الجنوبْ:
في مُدُنِ الملحِ التي يسكنها الطاعونُ والغُبارْ
في مُدُنِ الموتِ التي تخافُ أن تزورَها الأمطارْ
لم يبقَ إلا أنتْ..
تزرع في حياتِنا النخيلَ، والأعنابَ، والأقمارْ
لم يبقَ إلا أنتَ.. إلا أنتَ. إلا أنتَ
فافتحْ لنا بوّابةَ النّهار..»

تصفيق حادّ..

نزار: وأخيرًا سأقرأ بعض أبيات من «القصيدة المتوحِّشة».

يبتسم ويتابع: ولكنها ليست متوحّشة وإنما هي طلب للحبّ الذي نحن بحاجة فعلاً إليه دائمًا.

تصفيق.. يبدأ بالإنشاد:

«أحبّيني..
أحبّيني.. بلا عُقَدِ..
وضِيعي في خطوطِ يدي
أحبّيني.. لأسبوعٍ.. لأيـــامٍ.. لساعاتٍ..
فلستُ أنا الذي يهتمُّ بالأبدِ..
أنا تشرينُ.. شهرُ الريحِ،

والأمطارِ.. والبَرَدِ..

أنا تشرينُ.. فانسحقي..

كصاعقةٍ على جسدي..

أحبّيني. ولا تتساءلي كَيْفا.

ولا تتلعثمي خَجَلاً

أحبّيني.. بلا شكوى

أيشكو الغِمْدُ.. إذ يستقبلُ السَّيْفا؟

وكوني البحرَ والميناءَ..

كوني الأرضَ والمنفى

وكُوني الصَّحْوَ والإعصارَ

كُوني اللِّينَ والعُنْفَا

أحبّيني.. بألفِ وألفِ أسلوبٍ

ولا تتكرَّري كالصّيف..

إنَي أكرهُ الصَّيْفَا..

أحبّيني.. وقوليها

لأرفُضُ أن تُحبّيني بلا صوتِ

وأرفضُ أن أُواري الحُبَّ

في قبرٍ مِنَ الصَّمْتِ»

انتهت الأمسية وقام جمعٌ من الحضور لمصافحة الشّاعر والثناء على الشّعر الذي قيل.

رائحة الوطن

تبتلع السّيارة المسافات بسرعة، فالطريق إلى القنيطرة المحرّرة سهل وجميل، رغد تقود السّيارة بينما يكلّمها هو عن ذكريات مرّت..

يقول: سنوات وأنا أحمل بلادي في صدري، أخبِّئها في جفون كلّ حرف كتبته، في كل نقطة حبر سفحتها على الورق..

رغد: وهناك كثيرون يسألون أين هو الوطن في شعر نزار قباني شاعر المرأة والحبّ والغزل؟

يجيبها بحماس: الوطن مرسوم في كلّ فاصلة، في كلّ رشّة حبر يتركها أديب على الورق.

رائحة الوطن هي رائحة مدادنا وشواطئه وجباله وأقماره ونجومه وعيون نسائه، هي بعض أبجدياتنا.

بلادنا مجموعة كلمات جميلة.

كلمة منك، وكلمة مني، قشّة تحملينها أنتِ وقشّة أحملها أنا.. هكذا يصنع الربيع.. وأنا يسعدنيٍ ألف مرّة، يسعدنيِ أن أكون عشبة صغيرة في هذا الربيع، أن أكون خطًا بين خطوط اللوحة الكبيرة التي ترسمها أصابع الموهوبين في بلادي.

رغد: ورغم حبّك الكبير لبلادك فأنت بعد نكسة حزيران 1967 قد أنزلت غضبك كلّه على هذه البلاد التي تحبّها، وتصرَّفت بساديّة وكأنك ترقص فوق جراحاتِها؟

نزار بألم:

«يا وطني الحزينْ
حَوَّلتَني بلحظة..
من شاعرٍ يكتبُ شعرَ الحبّ والحنينْ
لشاعرٍ يكتبُ بالسكّينْ..»

يا عزيزتي لقد كتبتُ «هوامش على دفتر النكسة» في مناخ من المرض والهذيان وفقدان الرقابة على أصابعي، لذلك جاءت بشكل شحنات متقطّعة وصدمات كهربائية متلاحقة تشبه صدمات التيار العالي التوتر..

تقاطعه رغد: إذن فقد كتبتها وأنت بقمّة العصبية والتوتر والتهيّج، وأنت تعلم أن التهيج هو ضدّ الشعر؟!.

نزار: أعرف ذلك، ولكن هل كان عليَّ يا ترى، انسجامًا مع منطقي الفني، أن أنتظر انحسار مياه الطوفان حتى أكتب عن الطوفان، وبالتالي هل كان على الأدب العربي شعرًا وروايةً ومسرحًا أن يضع أعصابه في ثلاّجة حتى ترحل العاصفة وتنحسر الغيوم الرمادية، وينبت للشجر المحترق أوراق جديدة.

هذا المنطق صحيح من الوجهة النظرية، لو أن أعصاب الفنان مصنوعة من القطن، ولو أن الجرح المفتوح في لحم كبريائنا يقتنع بالانتظار.

«يوجعني أن أسمعَ الأنباء في الصباح
يوجعني
أن أسمعَ النباحْ..
ما دخلَ اليهودُ من حدودِنا
وإنما
تسرّبوا كالنّملِ.. من عُيوبِنا..»

تهزّ رغد رأسها بأسًى وتقول:
نعم. لقد دمّرَ حزيران كلّ أحلامنا الجميلة فانهارت الآمال التي صنعناها طيلة سنوات عديدة، انهارت في لحظات بل في ثوانٍ قليلة..
نزار:

«نريد جيلاً غاضبًا
نريدُ جيلاً يفلحُ الآفاقْ
وينكشُ التاريخَ من جذوره
وينكشُ الفكرَ منَ الأعماقْ
نريدُ جيلاً قادمًا مختلفَ الملامحْ
لا يغفرُ الأخطاءَ.. لا يسامحْ
لا ينحني.. لا يعرفُ النفاقْ
نريدُ جيلاً.. رائدًا.. عملاقْ
يا أيُّها الأطفالْ
من المحيط للخليج، أنتمُ سنابلُ الآمالْ
وأنتمُ الجيلُ الذي سيكسرُ الأغلالْ
ويقتلُ الأفيونَ في رؤوسنا..
ويقتلُ الخيالْ..
يا أيُّها الأطفال، أنتمْ، بَعْدُ، طيّبونْ
وطاهرونَ، كالنّدى والثّلج، طاهرونْ
لا تقرؤوا عن جيلنا المهزومِ يا أطفالْ
فنحن خائبونْ
ونحنُ، مثلَ قِشرةِ البطيخ، تافهونْ

ونحنُ، منخورونَ.. منحورون كالنعالْ..
لا تقرؤوا أخبارنا
لا تقتفوا آثارنا
لا تقبلوا أفكارنا
فنحن جيلُ القيء، والزُّهريّ، والسُّعالْ،
ونحن جيلُ الدجلِ، والرّقصِ على الحبالْ
يا أيها الأطفالْ
يا مطرَ الربيع، يا سنابلَ الآمالْ
أنتم بذورُ الخصبِ في حياتنا العقيمةْ
وأنتمُ الجيلُ الذي سيهزمُ الهزيمةْ..»

رغد: وكانت ردود الفعل عند نشر القصيدة قبلات من هنا وشتائم من هناك، أزهار من هذا وأشواك من ذاك..

يهز رأسه بمرارة ويتذكّر: عندما نشرت القصيدة في مجلة الآداب صودرت المجلة وأُحرقت أعدادها في أكثر من مدينة عربية..

رغد: ولكنها تناسلت وكثرت ولم يبقَ طالب ولا موظف ولا جندي إلا وعمل نسخة من القصيدة قرأها.

نزار: لأن الكتابات الممنوعة تنتشر أكثر بكثير مما كان مقدّرًا لها لو لم تتعرّض للمنع والتحريم.

رغد: وما علاقة عبد الناصر بالقصيدة وما الخلاف بينك وبينه؟

نزار: قضيتي مع عبد الناصر ليست قضية شخصية، إنها علاقة بين من يكتب ومن يحكم، بين الفكر وبين السلطة..

رغد: ولكن الهجوم في مصر بعد القصيدة كان كبيرًا عليك، والاتّهام كان بأنك تعمل على تحطيم معنويات قومك بمثل هذه القصيدة.

نزار: نعم كان الهجوم حادًّا وقد مُنِعْتُ من الدخول إلى مصر إثر تلك القصيدة وكذلك مُنعتْ قصيدتي.

لكن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وقف موقفًا لا يقفه عادة إلا عظماء النفوس واللمَّاحون والموهوبون الذين انكشفت بصيرتهم وشفّت رؤيتهم فارتفعوا بقيادتهم وتصرّفاتهم إلى أعلى المراتب الإنسانية والسمّو الروحي..

رغد: نعم.. لقد وقف الرّئيس عبد الناصر إلى جانبك يوم كانت الدنيا ترعد وتمطر على قصيدتك، وكسر الحصار الرسمي الذي حاول عزلك عن مصر وشعبها. ولكن كيف علم عبد الناصر بمنعك وكيف تدخل شخصيًا في هذه القصيدة؟

نزار: حين شعرت أنّ الحملة خرجت من نطاق النَّقد والحوار الحضاري، ودخلت نطاق الوشاية، قرّرتُ أن أتوجّه مباشرة إلى الرئيس جمال عبد الناصر وبعثت له هذه الرسالة.

يخرج رسالة من جيبه، يفتحها بعناية وحذر ويبدأ بالقراءة:

"سيادة الرئيس جمال عبد الناصر

في هذه الأيام التي أصبحت فيها أعصابنا رمادًا، وطوّقتنا الأحزانُ من كلّ مكان، يكتب إليكَ شاعر عربي يتعرَّض اليومَ من قِبَلِ السلطات الرسمية في الجمهورية العربية المتحدة لنوع من الظلم لا مثيل له في تاريخ الظلم.

وتفصيل القصة، أنني نشرت في أعقاب نكسة الخامس من حزيران

قصيدة عنوانها (هوامش على دفتر النكسة) أودعتها خلاصة ألمي وتمزّقي، وكشفت فيها عن مناطق الوجع في جسد أمتي العربية، لاقتناعي أنّ ما انتهينا إليه لا يعالج بالتواري والهروب، وإنما بالمواجهة الكاملة لعيوبنا وسيئاتنا، وإذا كانت صرختي حادة وجارحة، وأنا أعترف سلفًا بأنها كذلك، فلأن الصرخة تكون بحجم الطعنة، ولأن النزيف يكون بمساحة الجرح.

ومن منّا ياسيادة الرئيس لم يصرخ بعد ٥ حزيران؟

مَنْ منّا لم يخدش السّماء بأظافره؟

من منا لم يكره نفسه وثيابه وظلّه على الأرض؟

إن قصيدتي كانت محاولة لإعادة تقييم أنفسنا كما نحن، بعيدًا عن التبجّح والمغالاة والانفعال، وبالتالي كانت محاولة لبناء فكر عربي جديد يختلف بملامحه وتكوينه عن فكر ما قبل ٥ حزيران.

إنني لم أقل أكثر ممّا قاله غيري، لم أغضب أكثر مما غضب غيري، وكل ما فعلته أنني صنعت بأسلوب شعري ما صاغه غيري بأسلوب سياسي أو صحفي.

وإذا سمحت لي يا سيادة الرئيس أن أكون أكثر وضوحًا وصراحة، قلت إني لم أتجاوز في قصيدتي نطاق أفكارك في النقد الذاتي، يوم وقفتُ بعد النكسة تكشف بشرف وأمانة حساب المعركة، وتعطي ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه.

إنني لم أخترع شيئًا من عندي، فأخطاء العرب النفسية والسياسية والسلوكية، مكشوفة كالكتاب المفتوح.

وماذا تكون قيمة الأديب يوم يجبن عن مواجهة الحياة بوجهها الأبيض

ووجهها الأسود معًا؟ ومن يكون الشّاعر يوم يتحوّل إلى مهرِّج يمسح أذيال المجتمع وينافق له؟

لذلك أوجعني يا سيادة الرئيس أن تُمنَعَ قصيدتي من دخول مصر، وأن يُفرض حصار رسمي على اسمي وشعري في إذاعة الجمهورية المتحدة وصحافتها.

والقضية ليست قضية مصادرة قصيدة أو مصادرة شاعر، لكن القضية أعمق وأبعد.

القضية هي أن نحدّد موقفنا من الفكر العربي، كيف نريده؟ حُرًّا أم نصف حرّ؟ شجاعًا أم جبانًا؟ نبيًّا أم مهرّجًا؟

القضية هي أن يسقط أيّ شاعر تحت حوافر الفكر الغوغائي لأنه تفوّه بالحقيقة.

والقضية أخيرًا، هي أن نعرف ما إذا كان تاريخ ٥ حزيران سيكون تاريخًا نولد فيه من جديد، بجلود جديدة وأفكر جديدة ومنطق جديد.

قصيدتي أمامك يا سيادة الرئيس، أرجو أن تقرأها بكل ما عرفناه عنك من سعة أفق، وبُعد رؤيا، ولسوف تقتنع برغم ملوحة الكلمات ومرارتها، بأنني كنت أنقل عن الواقع بأمانة وصدق، وأرسم صورة طبق الأصل، لوجوهنا الشّاحبة والمرهقة.

لم يكن بإمكاني، وبلادي تحترق، الوقوف على الحياد، فحيادُ الأديب موتٌ له.

لم يكن بوسعي أن أقف أمام جسد أمتي المريض، أعالجه بالأدعية والحجابات والضراعات.

فالذي يحبّ أمته، يا سيادة الرئيس، يطهّر جرحها بالكحول، ويكوي ـ إذا لزم الأمر ـ المناطق المصابة بالنار.

سيادة الرئيس..

إنني أشكو لك الموقف العدائيّ الذي تقفه مني السلطات الرسمية في مصر، متأثرة بأقوال بعض مرتزقة الكلمة والمتاجرين بها. وأنا لا أطلق شيئًا أكثر من سماع صوتي، فمن أبسط قواعد العدالة أن يُسمَح للكاتب أن يفسّر ما كتبه، وللمصلوب أن يسأل عن سبب صلبه.

لا أطالب يا سيادة الرئيس، إلا بحرّية الحوار، فأنا أُشْتَمُ في مصر ولا أحد يعرف لماذا أُشتم، وأنا أُطعَن بوطنيتي وكرامتي لأنني كتبتُ قصيدة، ولا أحد قرأ حرفًا من هذه القصيدة.

لقد دخلت قصيدتي كلَّ مدينة عربية وأثارت جدلاً كبيرًا بين المثقّفين العرب إيجابًا وسلبًا، فلماذا أُحرَم من هذا الحقّ في مصر وحدها؟ ومتى كانت مصر تغلق أبوابها في وجه الكلمة وتضيق بها.

يا سيدي الرئيس..

لا أريد أن أصدّقَ أن مثلكَ يعاقب النازفَ على نزيفه، والمجروحَ على جراحه، ويسمح باضطهاد شاعر عربي أراد أن يكون شريفًا وشجاعًا في مواجهة نفسه وأمته، فدفع ثمن صدقه وشجاعته.

يا سيدي الرئيس..

لا أصدّقُ أن يحدث هذا في عصرك..

نزار قباني

بيروت في 30 ت1/1967»

أنهى قراءة الرسالة وأعادها إلى جيبه ككنز ثمين، قالت رغد:
إنها شجاعة كبيرة منك ومواجهة مباشرة.
نزار: تعرفين، لم يطلْ صمت عبد الناصر، ولم تمنعه مشاكله الكبيرة وهمومه التي تجاوزت هموم البشر من الاهتمام برسالتي، ولكنه سرعان ما وضع ملاحظات على الرّسالة وتعليمات حاسمة بإلغاء كل التدابير التي اتُّخذت خطأ بحقّي وبحقِّ مؤلفاتي وطلب إلى وزارة الإعلام السّماح بتداول القصيدة.
رغد بفرح: ورجعتَ إلى مصر بحماية عبد الناصر..
نزار: رجعتُ لأجد شمسَ مصر أشدَّ بريقًا ونيلها أكثر اتِّساعًا، ونجومها أكثر عددًا.
لقد كسر الرئيس عبد الناصر بموقفه الكبير جدارَ الخوف القائم بين الفن وبين السلطة، بين الإبداع وبين الثورة، واستطاع أن يكتشف، بما أوتيَ من حَدْسٍ وشمولٍ في الرؤية، أن الفن والثورة توأم سياميّ ملتصق، وحصانان يجرّانِ عربةً واحدة.. وأن كلّ محاولة لفصلهما سيحطّم العربة، ويقتل الحصانين..
انتهت الرّحلة إلى القنيطرة عروس الجنوب بالتجوّل في شوارعها وتناول الطعام في أحد المطاعم التي افتتحت بعد حرب تشرين التحريرية..
أما طريق العودة إلى دمشق فكان هادئًا وصوت المسجّل ينطلق بأغانٍ من شعر نزار مرّة بصوت كاظم الساهر وأخرى بصوت نجاة أو ماجدةً الرومي..

قولي أُحِبُّكَ

في حديقة المنزل الدمشقيّ يجلسان قرب البركة وروائح الياسمين والفلّ تغمرهما بينما ينطلق صوت المسجّل ببعض الأغنيات التي هي من تأليف الشّاعر..

تفيق رغد من استغراقها في السّماع لتسأله فجأة وبابتسامة: ألا تلاحظ أنَّك في أشعارك، ورغم أنّك تكون غارقًا في الحب، تنظر إلى نفسك على أنك أصل الحياة والجمال فأنت تقول:

«اتركيني أبنيكِ شعرًا وصدرًا
ودَعي لي تلوينَ عينيكِ»

وأنت أيضًا تكرّر أنَّ حبّكَ للمرأة هو الذي يجعلها أهم النساء.

يجيبها بعد تفكّر: عندك حق، أنا أشعر أنني خالق للجمال ولولاي لما بَقِيَ وخلد..

«خارجَ صدري أنتِ مفقودهْ
خارج شِعري أنتِ مجهولهْ
مدفونة تحت جليد السنين
مليكة.. كنتِ معي دائمًا
وصرتِ بعدي.. صرتِ للآخرين؟»

رغد: وتقول:

«لأنّي أُحبُّك..
أصبحتِ واحدةً من أَهمِّ النّساءْ..

وأسّستِ عصرًا جديدًا
ودينًا جديدًا
وأصبحتِ في كُتُبِ الشّعرِ محفوظةً
وفي كتبِ الأنبياءِ».

نزار: ألم يتحوّل حبّي ووصفي لها إلى أدبٍ خالدٍ؟!

«إذا تصفْحتِ يومًا يا بنفسجتي
هذا الكتابَ الذي لا يُشْبِهُ الكتُبا
تباركي بحروفي.. كلُّ فاصلة
كتبتُها عنكِ يومًا.. أصبحتْ أدبًا
كتبتُ بالضَّوءِ عن عينيكِ، هل أحدٌ
سوايَ بالضَّوءِ عن عينيكِ قد كتبا؟
وكنتِ مجهولةً حتى أتيتُ أنا
أرمي على صدرِكِ الأفلاكَ والشُّهُبا
أنا.. أنا.. بانفعالاتي وأخيلتي
ترابُ نَهْدَيْكِ قد حَوّلْتُهُ ذَهبَا».

رغد: وهذه النظرة ألا تنمّ عن التعالي؟!

نزار بفخر:

«أنا أهدمُ الدُّنيا ببيتٍ شاردٍ
وأُعَمِّرُ الدّنيا ببيتٍ شاردِ
بيدي صنعتُ جمالَ كلِّ جميلةٍ
وأثَرْتُ نخوةَ كلّ نهدٍ ناهدِ».

رغد: وما دور المرأة إذن؟

نزار: المرأة بالنسبة لي إلهام، فعندما أُحِبُّ تُعشبُ دفاتري وتتغيّر حياتي:

«لماذا.. لماذا.. منذ صرتِ حبيبتي
يُضيءُ مِدادي والدّفاترُ تُعشِبُ
تغَيَّرَتِ الأشياءُ منذ عَشِقْتَني
وأصبحتُ كالأطفال.. بالشَّمسِ ألعبُ
ولستُ نبياً مُرسَلاً غيرَ أنَّني
أصيرُ نبيًّا.. عندما عنكِ أكتبُ»

تبتسم رغد وتقول: ولكن في كلِّ مرَّةٍ تبدأ من جديد وكأنّ الحبَّ لم يطرقْ بابكَ من قبل:

«عشرينَ ألف امرأة أحببتْ
عشرينَ ألفَ امرأةً جرَّبتْ
وعندما التقيتُ فيكِ يا حبيبتي شعرتُ أنِّي الآن قد بدأتْ»

نزار: لأنّ كلّ امرأة تشكّل تجربة خاصة بالنسبة لي:

«أشكوكِ للسّماءْ
أشكوكِ للسمّاءْ
كيف استطعتِ، كيفَ، أن تختصري
جميعَ ما في الأرض من نساءْ»

رغد ضاحكة: وأنت حزين لاختصار النّساء في امرأة واحدة؟!

ما دامت هذه المرأة قد تسرّبت في مسامات جلدك فلن تفسح المجال لأخرى

«قد تسرَّبْتِ في مساماتِ جلدي
مثلما قطرةُ النّدى.. تتسرّبْ
اعتيادي على غيابكِ صعبٌ
واعتيادي على حضوركِ أصعبْ
كم أنا.. كم أنا أحبّكِ.. حتى
أنَّ نفسي.. من نفسِها تتعجّبْ»

يبتسم ويقول: أنا لا أعترض على أن تكون لي حبيبة واحدة، ولكن لا بدّ من وجود حبيبة في حياتي ليزيد جمالي ولتضيءَ أصابعي فبالحبّ أُصبح ملكًا متوّجًا على عرش القصيدة والشِّعر:

«قولي أُحبُّكَ كي تزيدَ وسامتي
فبغير حُبِّك لا أكونُ جميلا
قولي أحبُّكَ كي تصيرَ أصابعي
ذهبًا وتصبحَ جبهتي قنديلا
الآن قوليها..
الآن قوليها.. ولا تتردَّدي
بعض الهوى لا يقبل التأجيلا
سأغيّرُ التقويمَ لو أحْبَبتِني
أمحو فصولاً أو أضيفُ فصولا
وسينتهي العهدُ القديمُ على يدي
وأقيمُ عاصمةَ النسّاءِ بديلا
مَلِكٌ أنا لو تُصبحينَ حبيبتي

أغزو الشّموسَ مراكبًا وخيولا
لا تخجلي منّي فهذي فرصتي
لأكونَ بين العاشقينَ رسولا»

رغد: تحبّها وتعرف تمامًا أنك تصبح أجمل إذا صارحتكَ بحبّها، ولكنك دائمًا تحاول إقناعها بأنك المميَّز والمتفوّق على الناس جميعًا بقدراتك الفريدة التي تبزّ بها الملوك والقواد والمحاربين..

«أتحدّى كلَّ عشّاقكِ يا سيدتي
من ملوك، ومشاهير، وقوّاد عظام
أن يكونوا صنعوا تختك من ريشِ النعامْ
أو يكونوا أطعموا نَهْدَيْكِ.. يا سيّدتي
بلحَ البصرةِ.. أو توتَ الشام
أتحدّاهم جميعًا
أن يخطّوا لك مكتوبَ هوًى كمكاتيب غرامي
أو يجيئوكِ، على كَثْرَتِهم
بحروفٍ كحروفي، وكلامٍ ككلامي..

أتحدّى..
مَنْ إلى عينيكِ، يا سيّدتي، قد سبقوني
يحملونَ الشّمسَ في راحاتِهم، وعقودَ الياسمينِ
أتحدّى كلَّ مَنْ عاشرتِهمْ
من مجانينَ، وأطفالٍ، ومفقودين في بحرِ الحنينِ
أن يحبّوكِ بأسلوبي وطيشي وجنوني»

يتابع القصيدة:

«أتحدّاهم جميعًا..
أن يكونوا اكتشفوا..
كيف تغدو بين أهدابِكِ آلافَ الطّيورِ
أو يكونوا اقتنعوا
أن نهديك يدورانِ كما الشّمسُ تدورُ

أتحدّى..
مفردات الحبِّ في شتّى العصورِ
والكتابات على جدرانِ صيدون وصورِ
فاقرئي أقدمَ أوراقِ الهوى
تجديني دائماً بين السّطورِ..
إنني أسكنُ في الحبّ
فما من قبلةٍ
أُخِذَتْ.. أو أُعطيتْ
ليس لي فيها حلولٌ أو حضورْ..

أتحدّى أشجعَ الفرسانِ.. يا سيّدتي
وبواريدَ القبيلهْ..
أتحدّى مَنْ أحبّوكِ ومَنْ أحببتِهمْ
منذ ميلادكِ.. حتّى صرتِ كالنّخلِ العراقيِّ.. طويلهْ
أتحدّاهم جميعًا..
أن يكونوا قطرةً صغرى ببحري..

أو يكونوا أطفؤوا أعمارهم
مثلما أطفأتُ في عينيكِ عمري
أتحدّاكِ أنا.. أن تجدي
عاشقًا مثلي
وعصرًا ذهبيًّا مثلَ عصري..
فارحلي، حيثُ تريدينَ، ارحلي
واضحكي
وابكي
وجوعي
وتعرّي
فأنا أعرفُ أنْ لنْ تجدِي
غابةً فيها تنامينَ
كصدري»..

رغد: أنت تفتخر بتميّزك النوعي، أي إنك كشاعر متقدّم وسابق لسائر البشر من كلّ الأصناف الأخرى، وأنت تخاطب المرأة وتريد منها أن تعرف مقدرتك على إبراز محاسنها وبأنك أنتَ الذي تخلّد هذا الجمال وتعطيه حقّه في البقاء..

ولكن عندما تحبّك كشاعر ترفض وتطالبها بأن تفهمك وتحبّك كرجل!!

يقول: لأنني رجل قبل أن أكون شاعرًا

«أحببتِني شاعرًا طارت قصائدُه
فحاولي مرّةً أن تفهمي الرَّجُلا

وحاولي مرّةً أن تفهمي مللي
قد يعرفُ اللَّهُ في فِرْدَوْسِه المَلَلا
لي شهوتي مثلما للنَّاسِ شَهوتُهُمْ
ولستُ رَبًّا خرافيًا ولا بطلا»

رغد: صحيح ما تقول.. لكن يا سيدي نحن شعوب نعيش تحت سحر الشّعر والكلمة، وعندما تُعجب امرأة برجل مثلكَ فأوّل ما يلفتها أنه شاعر، حتى يخرج الرّجل من داخله بما فيه من مميزات الرجولة فتحبّه أو لا تحبّه..

نزار: نعم.. ولهذا كانت علاقات الحبّ الصادقة في حياتي قليلة جدًا..

«قلبي كمِنفضةِ الرّمادِ.. أنا
إن تنبشي ما فيه.. تحترقي
شعري أنا قلبي.. ويظلمُني
مَنْ لا يرى قلبي على الورقِ».

تذهب رغد لإعداد القهوة، بينما نزار يقلّب أشرطة الكاسيت ويختار أحدها.. يرتفع صوت الساهر بأغنية «أشهد».. تعود رغد تصبُّ القهوة وتقدّمها..

تقول: إن تقدّمك في السنّ قد أنعش غريزتك الطُّفوليّة بدل أن يضعفها أو يخفّفَ من حدّتها..

فما زلت تتكلّم عن المرأة التي تحبُّكَ وكأنها أمك التي تجمع ألعابك وتتحمّل حماقاتك وتصبر على جنونك..

يبتسم ويرفع صوت المسجّل:

«أشهدُ أن لا امرأةً أتقنتِ اللعبةَ إلا أنتِ
واحتملت حماقتي عشرةَ أعوامٍ كما احتملتِ
واصطبــرتْ على جنـــوني مثلما صبرتِ
وقلّمتْ أظافري، ورتّبتْ دفاتري
وأدخلتني روضةَ الأطفالِ إلاّ أنتِ».

رغد: وأن تكون المرأة التي تحبّ أمّك، هل هي عقدة أوديب؟

نزار: أنا لا أقصد أن نزعة العشق بي تتّجه غريزيًا نحو أمي.. هذا غير وارد.. ولكنني أقول إنني أعيشُ حالةَ طفولةٍ مستمرّة في سلوكي، في تصرّفاتي وفي كتابتي..

الطفولة هي المفتاح إلى شخصيتي، وإلى أدبي، وكلّ محاولة لفهمي خارج دائرة الطفولة هي محاولة فاشلة.. إنني بحاجة دائمة إلى الرعاية والحماية والاهتمام.

«أخطأتِ يا صديقتي بفهمي
فما أُعاني عقدةً
ولا أنا أوديبُ في غرائزي وحُلمي
لكنَّ كلَّ امرأةٍ أحببتُها
أردتُ أن تكونَ لي
حبيبتي وأمّي..
من كلِّ قلبي أشتهي
لو تصبحين أمّي..»

رغد: لهذا تتكرَّر في قصائدك ألفاظ «يا صغيري يا طفلي» التي تخاطبك

بها حبيبتك، وكذلك يكثر ترداد أن الحبيبة تحاول التخفيف من كآبتك وتحاول تهدئة أعصابك فتمسح على جبهتك المتعبة بأناملها الرّقيقة كما تفعل الأم:

«نَمْ على زندي الرَّخيم وأشْفقْ
يا رفيقَ الصِّبا على أَعْصَابِكْ
ارْفَعِ الرّأسَ والتفتْ لي قليلاً
يا صغيري، أكأبتَني باكتئابكْ
مسحتْ جبهتي بأناملها الخمسِ
وفَكّتْ شَعريَ المتشابكْ»

نزار: المرأة التي أحبها يجب أن تكون تشبهني، وأن تكون أمي، وأن يكون فني جزء من عمرها كما هو جزء من عمري..

رغد: وكيف تشبهك؟

نزار: أن تشبهني حبيبتي، معناه أن تكون هناك أرض مشتركة نقف عليها معًا، وأن يكون إيقاع روحينا وأفكارنا متجانسًا..

أن نهتزَّ معًا لآلاف الشؤون الصغيرة، وتكون لنا آلاف الاهتمامات المشتركة، ونخترع معًا آلاف الأشياء المفرحة..

«أجملُ ما في علاقتِنا
أنَّ الشِّعرَ هو صديقُنا المشتَركْ
يشربُ قهوتَه معنا
ويحتسي نبيذَه معنا
ويأخذ قيلولَتَهُ معنا

وأروع ما فيكِ
أنكِ تعتبرينه واحدًا من أطفالِكْ
تُحَمِّمينَهُ كلَّ صباحْ
وتجلسينَه على ركبتِك
وتطعمينَهُ بيدِكْ
وتقشّرينَ له اللَّوزَ والفستقْ
وتقصّينَ عليه حكايةَ ساندريلا
قبل أن ينامْ

• • •

أهمُّ ما في ثقافتك يا سيّدتي
أنكِ من حزبِ الشّعرْ
وأحلى ما في لغتك أنَّها مشتقّةٌ من لغةِ العصافير
ومُتتاليات (موزارت)
وتجلّياتِ محي الدين بنِ عربي..
أنتِ حبيبتي.. كما أنتِ حبيبةُ قصائدي
تستقبلينها ببشاشهْ
وتُقدّمين لها الحلوى، وعصيرَ البرتقالْ
وتتركينها جالسةً في مكتبي
وتقفلين علينا الباب

• • •

يا قدّيستي الصغيرة:
أيّتها الجزيلةُ العطايا، والكثيرةُ الكراماتْ

كم كانت نُبوآتُكِ رسوليُهْ
حين اكتشفتِ الرّباطَ السِّحريّ
بين أنوثة الأنثى
وأنوثة القصيدهْ..
وكم كنتِ امرأةً حقيقيّهْ
حين لملمتِ قصائدي
وشَككْتِها في خيطٍ من الحريرْ
ووضعتها حول عُنُقِكْ
عِقدًا من الياسمينْ».

رغد: معك حقّ.. أجمل ما في الحياة أن نجد الآخر الذي يستوعب أحلامنا ويحبّ ما نحبّ.. ولكنك يا سيّدي وبعد سنوات العشق الطويلة وتعدّد النساء في حياتك، تعترف أخيرًا أنك خرجت من مدرسة العشق بخفيّ حنين؟

نزار:

«دخلتُ لمدرسةِ العشقِ
خمسينَ عامًا
ومنها خرجتُ بِخُفّيّ حُنَين
أخذتُ بدرسِ التصوّف صِفرًا
ودرسِ التَّقَشُّفِ صِفرًا
ودرسِ الغرامِ الرّومنسيّ صِفرًا
ولَكنني..
ما تفوَّقتُ إلاّ بدرسِ الجنون

لَبِسْتُ النّساءَ عليّ قميصًا
وكنتُ أظنُّ قميصي حريرٌ
وحينَ أتى البردُ والزّمهريرْ
تأكّدت أنّي لَبِستُ العراءْ»

رغد: أستاذ الهوى يتكلّم هكذا!!

نزار:

«لا تهتمّي يا سيّدتي، في أقوالي
ليس لديَّ دروسٌ أعطيها
لا في الحبِّ
ولا في الجنس
فنصفُ كلامي شَطَحاتُ خيالِ
فأنا ألعبُ بالكبريت
وأُحرِقُ نفسي مثلَ جميعِ الأطفالِ.

• • •

لا تهتمّي
فيما أكتبُ يا سيّدتي
فأنا رجلٌ يزرعُ قمحًا فوقَ الرّيحِ
ويكتبُ شِعرًا فوقَ الماءِ
ويصنعُ حُبًّا
من موسيقى البحرِ
ومن رائحةِ العشبِ

ومن أنفاسِ الغاباتِ

• • •

يا سيّدتي
كوني امرأةً عاقلةً
فأنا لستُ نبيَّ الحبِّ
ولا أتذكَّرُ أني
قد أنزلتُ على مُعْجبَةٍ آياتي
فأنا نفسي
لستُ أُصدِّقُ آياتي!!..

• • •

لا تضطربي يا سيّدتي
فأنا أعرفُ ماذا يفعلُ فيكِ العشقُ
وتفعلُ في فَمِكِ القُبُلاتْ
وأنا أعرف ماذا يفعل فيَّ الشّعرُ
وكيف تُخَدِّرُني رائحةُ الحبرِ
ويذبحُني سيفُ الكلماتْ

• • •

يا سيّدتي:
لا تنتظري الثّورةَ مني
فأنا أشعرُ أنَّكِ آخرُ ثوراتي»

رغد: الرّجل عادة يتحدّث عن انتصاراته في الحبّ ويسكت عن هزائمه!

يقاطعها: لأنّ غروره لا يسمح له أن يقول: سحقتني امرأة أو باعتني امرأة، ولكني لو رجعت إلى حساباتِ عِشقي القديمة لوجدت أنني في أكثر تجاربي العاطفية كنت أنا القتيل لا القاتل والمذبوح لا الذابح:

«عشرون عامًا فوق درب الهوى
فمرَّةً كنتُ أنا قاتلاً
وأكثرُ المرّاتِ مقتولا
عشرون عامًا.. يا كتابَ الهوى
ولم أزَلْ في الصفحةِ الأولى».

رغد: وبين قصص الحبّ الكثيرة التي كنتَ في بعضها القاتل وكنتَ في بعضها المقتول ظهر الاتّهام لك بالدونجوانية؟!

نزار: بالطبع أنا لست دون جوانًا، فالدون جوان بهلوان محترف لا تعنيه فكرة الحبّ ولا يتعامل معه أصلاً..

إنه مسافرٌ لا مرافئ له ولا محطّات، أما أنا فمسافرٌ من نوع آخر، مسافر لا يرفضُ كلَّ المرافئ، وإنما في ذهنه صورة لمرفأ معيّن لا يعرف أين هو ومتى يلاقيه. إن الدّونجوانية ليست في طبيعتي ولا تركيبي، وتجارة الجواري ليست حرفتي..

رغد: وماذا عن التناقض في مواقفك من الحبّ؟.

نزار بعد تفكير: إن شعر الحبّ الذي كتبته يغطي مساحة ثلاثين عامًا رست فيها مراكبي على ألوف الموانئ، واصطدمتْ بألوف النساء، ومع كلّ خطوةٍ كان يتغيّر ذوقي ويتغيّر منطقي ويتغير لون حبري وعدد أصابعي.. كلّ امرأة كانت كتابًا مكتوبًا بلغة جديدة وأسلوب جديد.. وكان عليّ أن

أكتشف كلّ القارّات وأقرأ كلّ الكتب.

«الحــبُّ لـيـس روايـــةً شـرقـيّـةً
بـخـتـامِـهـا يـتـــزوّجُ الأبـطـالُ
لـكـنّـه الإبـحـارُ دون سـفـيـنـةٍ
وشـعـورُنـا أنَّ الـوصـولَ محـالُ
هـو أن تظلَّ على الأصـابـع رعشةٌ
وعـلـى الـشّـفـاهِ المـطَـبَـقـاتِ سـؤالُ
هـو جـدولُ الأحـــزانِ في أعـمـاقِـنـا
تـنـمـو كـــرومٌ حـولـهُ، وغِـــلالُ
هـو أن نـثـورَ لأيِّ شـــيءٍ تـافـهٍ
هـو يـأسُـنـا.. هـو شَكُّنا الـقَـتَّـالُ»

رغد: وماذا عن لقبكَ بشاعر المرأة؟

نزار: أنا بالطبع لا أرفض مثل هذه النعمة، و«أيِّ قطّ يهرب من عرس»كما يقول المثل الشامي، ولكنني أعترضُ على هذه التسمية إذا كان يُقصَدُ بها تحديدي ووضعي في دائرة مُغلَقة.

في الماضي كان اللّقب يُسَلّيني ثم أصبح لا يعنيني ثم تحوّل من نعمة إلى تهمة، ومن وردةٍ إلى رمح مزروع في خاصرتي.

رغد: ربما هذا لكثرة النسّاء في حياتكَ؟

نزار: حياتي كغيري من الرجال، عرفت نساءً كثيرات، انتصرتُ وانهزمت، أحرقتُ واحترقت..

وإذا كانت روائح حُبّي تفوح بشكل أقوى وأعنف من روائح بقيّة العشّاق،

فلأنني رجلُ يمتهنُ الكتابة ويضع حياته بكلّ تفاصيلها على الورق.

رغد: ومن هي المرأة الشّعر بالنسبة إليك؟

نزار: تعلّمت من خلال تجاربي أن المرأة ـ الشّعر هي التي تترك شرخًا وارتجاجًا في قشرة دماغي، هي التي تحدث خلخلةً في إيقاع أيّامي، وفي نظام الأشياء من حولي.. هي التي تلغي الزمن وتربطني بزمنها هي:

«لأنّي أُحبّكِ
أشعرُ أنّي تحرّرتُ من كلّ شيء
ومزّقتُ رسمي القديمْ
وألغيتُ اسمي القديمْ
وبعثرتُ أوراق جنسيّتي في الهواء
لأني أُحبّكِ
أدركتُ أبعادَ حرّيتي
وأدركتُ سِرَّ العلاقةِ
بين اكتشافِ العيونِ
وبين اكتشافِ الفضاءْ

• • •

لأنّي أُحبُّكِ.. أصبحتُ مكتفيًا باكتفائي
ومقتنعاً أن حُبَّكِ أعظمُ حزبٍ دخلتُ إليه
وأرحمُ صدرٍ لجأتُ إليه
وأحلى انتماءْ
فماذا يُفيدُ التَّنَقُّلُ بين الخواتمِ من كلّ لونٍ..
وبين المليحاتِ من كلّ جنسٍ

وماذا يُفيدُ التَّسَكُّعُ شرقاً.. وغربًا؟..
وأنتِ جمعتِ رحيقَ الحضاراتِ فيكِ.
وأنتِ اختزلتِ جميعَ النساءْ».

رغد: وهل النّساء ـ الشعر، في حياتك كُثُر؟

نزار: إن النساء اللواتي أحدثنَ كسرًا في زجاج حياتي لا يتجاوز عددهنّ أصابعَ اليد.. أما البقية فلم يتركنَ سوى خدوش بسيطة على سطح جلدي.

رغد: رغم سمعتك كشاعر حبّ؟!..

نزار هازًّا كتفيه: رغم سمعتي كشاعر حبّ، فأنا نادرًا ما وقعتُ في الحبّ، خمس مرات ربما، في مدى ثلاثين عامًا وأعترف أن ليس كلّ علاقة نسائية فتحت شهيتي للكتابة..

كثيرات من النساء ذهبن من حياتي كما أتينَ، ولم يتركنَ وراءهن حرفًا ولا فاصلة.

رغد: ولكنك تقول:

«وكلّما انفصلتُ عن واحدة
أقولُ في سذاجة
سوف تكون المرأةُ الأخيرهْ
والمرّة الأخيرهْ
وبعدها سقطت في الغرام ألف مرّهْ
ومتُّ ألفَ مرّهْ
ولم أزلْ أقول:
تلك المرّة الأخيرهْ».

نزار يبتسم ويقول: أخبرتك قبلاً أن الحبّ قد مَرَّ في حياتي كما في حياة بقية الرجال.

رغد: وماذا تعلّم الأستاذ من النّساء اللّواتي عرفهنّ؟

نزار: من كلّ امرأة تعلّمتُ كلمة من كتاب الحبّ، من الدّمشقيّة تعلّمتُ الوداعة وانكسار الجفن، ومن العراقية تعلّمتُ الوضوح والكبرياء، ومن الفرنسية تعلمتُ الخبرة، ومن الصينية تعلّمت الحكمة، ومن الإنكليزية تعلّمتُ العمق، ومن اللبنانية اكتسبتُ خبرة الفينيقيين في تغيير السفن وتغيير المرافئ.

رغد: وعندما تغرقُ في الحبّ؟..

نزار: الحبّ لا يفقدني بصيرتي ولا يفقدني توازني، فأنا أحبُّ وأنا مفتوح العينين وقادر على رؤية مَنْ أحبُّها بحجمها الطبيعي، الحبُّ لا يقوم على الغباء أو على التغابي..

فلكي أحبّ امرأة من بين عشرة آلاف امرأة، لا بدّ أن أكون في حالة من الوعي والصفاء الذهني تسمح لي باكتشاف ما يميّزها عن بقية النّساء.

ها هي الشام

نزار ورغد يتمشيان في شارع «أبو رمانة»، النّسمات تعانق الأشجار فتتراقص فَرِحَةً والياسمين المتدلّي من الجنائن يرحّب بالماشين ويهديهم أحلى العطور..
يقف نزار ويتأمّل الشّارع الممتدَّ وتعود به الذّكريات سنوات إلى عام 1973.

يقول: لقد أصبح هذا الشّارع بأبنيته المتهدّمة وشرفاته المتساقطة وأصص أزهاره المحترقة وأشجاره التي حصدتها الصّواريخ، أصبح أهمّ شَارع في العالم، لأن الكبرياء والبطولة أصبحتا من بين سكّانه.

لقد عرفتُ كلَّ أنواع الحبِّ، ولكنّ الحبّ في زمن الحروب، شيء آخر.. شيء آخر..

لقد سافرتُ إلى كلّ عواصم العشق، وتجوّلت في كلِّ شوارع العشّاق، ولكن شارع «أبو رمانة» أصبح هو الشّارع الأجمل والأهمّ..

رغد: الأجمل بعد أن مَزّقته الحرب؟!

نزار: الذي رأى وجه دمشق، المغطّى بغبار البطولة، كان يحسُّ أن الحرب منحت دمشق جمالاً جديدًا لم تعرفْهُ منذ أيام صلاح الدين..

والذي شاهد عيون مصر وهي ترى عشرات الآلاف من أبنائها يقفزون كالبروق إلى الضفة الثانية من القنال، كان متأكّدًا أن عيون مصر لم تكن بمثل هذا الاتّساع والعمق منذ أيام عمرو بن العاص..

هذا الجمال الدّمشقيّ، وهذا الجمال المصريّ هما أجمل وردتين نبتتا في حديقة الوطن العربي منذ خمسمائة عام.

رغد: هو جمال متوحّش شرس وبربري؟!..

نزار: مَن قال إن الحمامة هي أجمل من الفهد الاستوائي، لقد كنّا قبل حرب السّادس من اكتوبر ننتمي إلى فصيلة الحمام الزاجل والمطوّق، فلم يقتنع العالم بجمالنا، ولم يكتب لنا أحد رسالة حُبٍّ واحدة. وحين انتسبنا إلى نادي المحاربين ولبسنا البذلات الكاكية وقفزنا إلى حقوقنا على طريقة الفهود الاستوائية، وأجبرنا العالم على الوقوف في الطابور ليملأ غالون نفط.. جاء العشّاقُ الأوربيّون إلى أبوابنا يحملون باقات الورد وقصائد الغزل.

إن أوربا اليوم مأخوذة بجمالنا، بعد أن كان الجمال العربي متّهمًا بالهمجّية والبداوة ومطرودًا من كلّ مسابقات الجمال..

رغد: وقد لعب بترول العرب وقتها دورًا مهمًّا..

نزار: لقد استطاع بترول العرب وأرصدتهم أن يهزّوا العالم من جذوره، وأن يحوّلوا العملات الأجنبية إلى أوراقٍ في مهبّ الريح.. إن رأس المال العربيّ لعب بغير شكّ دورًا ممتازًا وشجاعًا في تغيير نظرة العالم إلينا، كما أنه دفع بالقضية الفلسطينية إلى الصفوف الأولى من مشاكل العالم وأعطاها الأولوية في المحافل الدولية ونقلها إلى بؤرة الضوء بعد أن ظلّت ثلاثين عامًا في دائرة التعتيم..

رغد: لقد شارك العرب جميعهم في هذه الحرب بصورة رائعة.

تلمع عيناه ويقول بحماس: أساطير.. أساطير.. تملأ دمشق لملمتُها من شفاه الناس..

الجنود العراقيّون والمغاربة الذين قاتلوا دفاعًا عن عذريّة الشّام أصبحوا قصيدة على فم الشّام..

العراقيون على الجبهة رفضوا استعمال إجازاتهم ولو لبضع ساعات لأن السيف في نظرهم لا يأخذ إجازة كبقيّة الموظّفين، والمغاربة الجرحى في المستشفيات السّورية رفضوا أن يبعثوا لأهلهم رسائل اطمئنان لأنهم جاؤوا إلى سورية ليموتوا موتًا حقيقيًا.. لا نصف موت.

يتوجهان إلى أحد المطاعم في شارع «أبو رمانة» يجلسان بينما ما يزال الشاعر يتذكّر ويتذكّر..

«هـا هـي الـشّـامُ بـعـدَ فُـرْقَـةِ دهـرٍ
أنـهـرٌ سـبـعـةٌ وحُـورٌ عِـينُ
شـمـسُ غـرنـاطـةٍ أطـلّـتْ عـلـيـنـا
بـعـد يـأسٍ وزغـردتْ مـيـسـلـونُ
مَـزِّقـي يـا دمـشـقُ خـارطـةَ الـذلّ
وقـولي لـلـدَّهـرِ: كُـنْ فـيـكـونُ
اسـتـردّتْ أيّـامَـهـا بـكِ بـدرٌ
واسـتـعـادتْ شـبـابَـهـا حِـطّـيـنُ
اسـحـبـي الـذَّيْـلَ يـا قُـنَـيْـطِـرةَ
المـجـدِ وكَـحِّـلْ جَـفْـنَـيْـكَ يـا حَـرَمـونُ
وطـنـي يـا قـصـيـدةَ الـنّـارِ والـورد
تَـغـنَّـتْ بـمـا صـنـعـتَ الـقـرونُ
نـحـنُ عَـكّـا ونـحـنُ كَـرْمِـلُ حيفا
وجـبـالُ الجـلـيـلِ والـلَّـطْـرُونُ
كـلُّ لـيـمـونـةٍ سَـتُـنـجـبُ طـفـلاً
ومُحَـالٌ أن يـنـتـهـي الـلَّـيـمـونُ

اركبي الشّمسَ يا دمشقُ حصانًا
ولكِ اللهُ حافظٌ وأمينُ»

يغمض عينيه ويقول كالحالم:

إن الحرب قد وضعتنا في حالة شعريّة استثنائيّة، ومنحتنا لحظات من القشعريرة القوميّة لا تحدُث في حياة الأمَم إلاّ نادرًا، ففجّرتْ كلَّ ينابيعنا الجوّانيّة، وأضاءتْ كلَّ القناديل المطفأة في داخل النفسِ العربية ومسحت كلَّ الغبار المتراكم منذ عصور الانحطاط على وجوهنا وثيابنا وشبكيّات عيوننا.

رغد: وبعد الحرب التحريرية جاء كيسنجر إلى دمشق ليفاوضَ الرئيس حافظ الأسد..

يبتسم نزار ابتسامة الظافر ويقول: يبدو لي أن كيسنجر لوفرة انتصاراته الدبلوماسية والنسائية أصبح يكره سماع كلمة (لا) مهما كان مصدرها لأنه يعتبرها تحديًّا لفحولته وانتقاصًا من فروسيته.

رغد: وسوء حظّه قاده إلى دمشق.

نزار: من سوء حظّه حقًا أنه وضع اسم دمشق وعنوانها ورقم تلفونها في مفكّرته المعطَّرة الحبلى بأسماء آلاف العشيقات. وقد كان في ذهنه صورة لقاء شاعريّ في أحضان الورد الجوريّ والحور والصفصاف وضوء القمر..

رغد: ووجد نفسه فجأة أمام الرئيس حافظ الأسد..

نزار: نعم.. العاشق الخرافيّ، فتح حقيبته وأخرج اسطوانات الجاز والروك وزجاجة البراندي.. وطلب من مساعده سيسكو أن يلحقه بصحن الفستق الحلبيّ ويعطيه قصيدة الغزل التي نظمها في الطائرة ليطرّي بها الجوّ ويكسر جليد الصمت..

ويتابع بفرح وكأن المشهد أمامه الآن:
غير أن وجه الرئيس الأسد ظلّ وجهًا نحسيًا كوجه سيف خارج لِتَوِّه من غبار المعركة، وظلّت قسماته هادئة كالنقوش المحفورة على حجارة تدمر، وظلَّ صوته عميقًا كأنه قادمٌ من كهوف الزمن وأعماق البحر...
كان كيسنجر يفكّر بزجاجة البراندي، وكان حافظ الأسد يفكّر بزجاجة الدم التي امتلأت بدمّ الشّهداء السّوريين الذين سقطوا في حرب تشرين..
تقول باهتمام: وماذا حصل بعد ذلك؟
نزار: وضع الرّئيس الأسد ملفّات القضية على الطاولة.. ووضع كيسًا فيه تراب الجولان.. وكيسًا ثانيًا فيه تراب فلسطين، وكيسًا ثالثًا فيه رماد المسجد الأقصى، وكيسًا رابعًا فيه جراح المسيح، وكيسًا خامسًا فيه قدر الأمة العربية، وكيسًا سادسًا فيه أسماء الأسرى الإسرائيليين الذي تحتفظ بهم سوريا.
رغد: وطبعًا مدّ كيسنجر يده إلى الكيس الأخير وترك البقيّة..
نزار: وطبعًا سحب السوريّون الكيس من أمامه، فوقعت زجاجة البراندي على الأرض وتهشّمتْ الأسطوانة وباظت الحفلة..
رغد: يقال إن كيسنجر ذكيّ جدًا وإنّه فلتة زمانه وأعجوبة عصره.
يضحك نزار ويقول: ولكن.. لقد فات هذا العاشق الكبير أن يدرسَ قبل مجيئه إلى سورية قاموس الغزل الدمشقيّ، وألف باء العشق عند أهل الشّام.
لقد فاته أن يقرأ أفكار قاسيون وميسلون والجامع الأمويّ، والكتابات المنقوشة على قبر صلاح الدين..

إن دمشق ليست ضدّ الحبّ، ولكنها ضدّ الاغتصاب، وليست ضدّ الوصال، ولكنها ضدّ الاحتلال، وليست ضدّ الزواج ولكنها ضدّ المتعة..

رغد: لقد صَرَّح كيسنجر أكثر من مرّة أنه لا يحبّ السّوريين ولا يحمل لهم مشاعر الودّ.

نزار ضاحكًا، وكأنه يوجّه رسالة مباشرة إلى كيسنجر:

أنت يا كيسنجر.. بعد ما حصل حُرٌّ في أن تحبَّ بلادي أو لا تحبُّها..

فدمشق هي وردة العالم العربي ولؤلؤته وسيفه

ولن يضيرها في شيء أن لا تكون حبيبتكَ...

رغد: إنّ الموقف الذي وقفه الرّئيس الأسد رائع وبطوليّ..

نزار: يا عزيزتي، إن الرّئيس حافظ الأسد ليس رئيس جمهورية من نوع الرؤساء الذين يجلسون طول مدّة ولايتهم في متحف (مدام توسو) يبتسمون ابتسامة شمعيّة، ويتكلّمون بلغة شمعية، حتى إذا خرجوا دلقوا على أيديهم نصف ليتر اسبيرتو خوفًا من الأكزيما الشعبية..

إن الرّئيس الأسد هو صديق الشّجرة والغيمة وسنبلة القمح، والحقول والأطفال والغابات والجداول والعصافير والشّعراء.. وفيروز وعاصي الرحباني..

ولو أنّ عصفورًا واحدًا سقط أو غمامةً واحدة بكت أو سنبلةَ قمح واحدة انكسرتْ، لحمل إليها حافظ الأسد وعاء المصل ووقف فوق رأسها حتى تشفى..

إن صورة رئيس الجمهورية هي صورته المحفورة في وجدان الناس وضمائرهم، لا صورته الرّسمية المعلّقة في دواوين الحكومة، والمرسومة على طوابع البريد.

تخرج رغد ورقة فيها قصيدة وتقرأ:

«كلُّ مدينةٍ عربيّةٍ هي أمّي
دمشقُ، بيروتُ، القاهرة، بغداد، الخرطوم
الدار البيضاء، بنغازي، تونس، عمّان، الرّياض
الكويت، الجزائر، أبو ظبي وأخواتها..
هذه هي شجرة عائلتي..
كلُّ هذه المدائن أنزلتني من رحمِها
وأرضعتني من ثديها
وملأتْ جيوبي عنبًا، وتينًا، وبرقوقًا..
كُلُّها هَزَّتْ لي نخلَها.. فأكلتْ
وفتحتْ سماواتِها لي.. كُرَّاسةً زرقاءْ
فكتبتْ..
لذلك، لا أدخلُ مدينةً عربيةً.. إلاّ
وتناديني: يا ولدي
ولا أطرقُ بابَ مدينةٍ عربيّةٍ
إلاّ وأجدُ سرير طفولتي بانتظاري
لا تنزفُ مدينة عربيّة إلا وأنزفُ معها».

يهزّ رأسه: نعم كلُّ المدن العربية هي أمّ لي، أحبّها وتحبني..

رغد: ورغم ذلك فأنت تهاجم العرب والعروبة بقصائد مغضوب عليها كما أسميتها، وتهاجم شعبًا بكامله هو شعبكَ، الذي أعطاك من صنوف الحبّ ما لم يعطه شعب لأيٍّ شاعر.

نزار بألم: أنا أحمل سيخًا من النار أكوي به جسد الأمة العربية، وأنا من كثرة حبّي لوطني لم أستطع أن أقف صامتًا أمام هذه الغيبوبة الكبرى التي غرق فيها الشّعب العربي ويغرق. ما يهيجني أكثر من سواه هو هذا الموت اليوميّ، كأنَّ الإنسان لم يبقَ له إلا هذا الرّغيف الذي يقاتل من أجله. الحياة ليست رغيف خبز.

رغد: لقد اتّهمكَ أحد النّقّاد يوماً بالشّعوبية لا بالثوريّة.

نزار: وقد أجبته يومها ونشرت إجاباتي في «الحوادث»، قلت له: إنَّ الشّعوبي هو الذي يزيّف الحقائق، هو الذي يقفُ أمام الحاكم ويزيّف له الحقائق، وما أكثر الشّعراء والأدباء العربي الآن الذين أصبحوا جزءًا من السّلطة، الوقوف في وجه السطة ليس شعوبية إطلاقًا.

«أكتبُ..
كَيْ أُفَجِّرَ الأشياءَ، والكتابةُ انفجارْ
أكتبُ..
كي ينتصر الضَّوءُ على العُتمَةِ
والقصيدةُ انتصارْ
أكتبُ..
كي تقرأني سنابلُ القمحِ،
وتقرأني الأشجارْ
أكتبُ..
كي تفهمَني الوردةُ، والنجمةُ، والعصفورُ
والقطّةُ، والأسماكُ، والأصدافُ والمَحَارْ..

• • •

أكتبُ..
حتى أُنقِذَ الكلمةَ من محاكمِ التفتيشِ
من شمشمةِ الكلابِ
من مشانقِ الرّقابَهْ..
لا شيءَ يحمينا من الموتِ،
سوى المرأةِ.. والكتابَهْ..»

رغد: ولكن النّاقد اتّهمك بأنك لم تصرخ بوجه الظلم وإنما صرختَ بوجه الأمّة..

نزار: أنا أرى أنه لا بدّ من توجيه الأشّعة، توجيه الضّوء على ما نعانيه من جراحاتنا، الناس يريدون أن يصرخوا، ليس الصراخ متاحًا لأحد، أنا أصرخ بلسانهم..

«يا أصدقاءَ الشّعر:
إنّي شجرُ النَّار، وإنّي كاهنُ الأشواقْ
والنَّاطقُ الرّسميُّ عن خمسين مليونًا من العُشّاقْ
على يدي ينامُ أهلُ الحبِّ والحنينْ
فمرّةً أجعلُهمْ حمائمًا
ومرّةً أجعلهم أشجارَ ياسمينْ
يا أصدقائي..
إنَّني الجرحُ الّذي يرفضُ دومًا
سُلطةَ السِّكّينْ

• • •

يا أصدقائي الرّائعينْ:
أنا الشّفاهُ للذين ما لهم شِفَاهْ
أنا العيونُ للذين ما لهم عيونْ
أنا كتابُ البحر للذينَ ليس يقرؤونْ
أنا الكتاباتُ التي يحفرُها الدمعُ في عنابرِ السّجونْ
أنا كهذا العصرِ، يا حبيبتي
أواجهُ الجنونَ بالجنونْ
وأكسُر الأشياءَ في طفولةٍ
وفي دمي رائحةُ الثَّورة واللّيمونْ
أنا كما عرفتموني دائمًا
هوايتي أن أكسرَ القانونْ
أنا كما عرفتموني دائمًا
أكونُ بالشِّعْرِ.. وإلاّ لا أريدُ أن أكونْ».

نزار يقول بعد صمت كئيب: لماذا يرفض الناس الحقيقة؟!.. هل وضعنا العربي الرّاهن مريح وممتع؟! قولي لي هل تستطيعين أنت أن تتجوّلي في أنحاء الوطن العربي الواحد،كما يسمّونه، بدون «فيزا» وإذن بالدخول والمرور؟!

رغد باستسلام: بالطبع لا.. فحتى تنتقل من بلد إلى آخر لا بدّ من الوقوف على الحدود لساعات، أما بلاد النّفط، والتي هي البلاد العربية الإسلاميّة والتي انتمينا إليها ولزمان طويل، فلا مجال بتاتًا للعربيّ أن يزورها دون كفالة وواسطة و... و...

يقول بألم:

«لا...
ليسَ هذا وطني الكبيرْ
لا..
ليس هذا الوطنُ المربَّعُ الخاناتِ كالشّطرنجِ...
والقابعُ مثل نملة في أسفلِ الخريطهْ..
هو الذي قال لنا مُدَرِّسُ التاريخ في شبابنا
بأنّه موطنُنا الكبيرْ..

لا...ليس هذا الوطنُ المصنوعُ من عشرينَ كانتونًا
ومن عشرين دُكَّانًا
ومن عشرين صَرَّافًا
وحلاّقًا
وشُرطيًّا
وطبّالاً.. وراقصةً
يُسَمَّى وطني الكبير».

نزار: هل ممنوع أن يغضب الإنسان على نفسه؟!

رغد تخرج ورقة وتقول: اسمع ما كتبه الناقد المصريّ رجاء النقّاش ردًّا على الهجوم على قصائدك: «إنَّ الأدب العربي والعالميّ مليءٌ بشعر الغضب، بل إنّ شعر الغضب هو أبرز ألوان الشّعر العالميّ وأكثره اتّصالاً بوجدان الأمم وضميرها، فهو شعر يمثّل دافعًا قويًا من دوافع الحركة والحياة والتّطور ومواجهة الصّعوبات الكبرى التي تعترضُ الشّعوب..

وليس شعر نزار قباني الغاضب إلاّ لونًا من ألوان الشّعر الذي يحرّك

الضّمير ويوقظ الروح والنفس ويحضّ الإنسان العربي ويحرّضه على عدم السّقوط في الرّضا والاسترخاء والاستسلام للواقع.

وليعلم الجميع أن الشّعر الغاضب لا يخيف الأمم الحيّة، بل يدفعها إلى النهوض والقوة ويوقظ ضميرها وقدرتها على المواجهة في المواقف العصيبة».

نزار بمرارة: ولكن ما فائدة شعري الغاضب إذا كانت الحدود والتقسيمات ستبقى في وطني الكبير الذي تحوّل إلى أوطان كثيرة لا دخلَ لي بها.

رغد: وهناك مقولة لناقدٍ آخر أنك أعلنت بخطوة تكتيكية مفاجئة استقالتك من نادي المرأة ورغبتك بالانتساب إلى نادي القضية؟

يبتسم نزار بأسًى ويقول: إن كلّ من يقرأ شعري منذ بداياته الأولى يعرف أن هذا الكلام غير صحيح فأنا قد كتبتُ في كلِّ القضايا العربية ومنذ بداياتي وحَذَّرْتُ من كلّ ما توصّلنا إليه الآن..

قصيدة راشيل التي كتبتها في عام 1956 ألم تكن حلمًا ناديتُ لتحقيقه وأَدَنْتُ من خلالها الكبار لأنهم ضيّعوا أرض الوطن.. أليست القصيدة تحريضًا على الثورة باسم التّراب والأطفال والنّساء وجميع الشّهداء.

«أكتبُ لِلصّغارْ
للعربِ الصِّغارِ حيثُ يوجدونْ
لهمْ، على اختلافِ اللَّونِ، والأعمارِ، والعيونْ...
أكتبُ للذين سوف يولدونْ
لهم أنا أكتبُ.. للصّغارْ
لأَعينٍ يركضُ في أحداقِها النّهارْ

أكتبُ باختصارْ
قصّةَ إرهابيّةٍ مُجَنَّدَهْ
يدعونها راشيلْ
قضتْ سنينَ الحربِ في زنزانةٍ منفردَهْ
كالجرذِ.. في زنزانةٍ منفردَهْ
شيّدها الألمانُ في براغْ
كان أبوها قذرًا من أقذرِ اليهودْ
يُزَوِّرُ النقودْ
وهي تديرُ منزلاً للفحشِ في براغْ
يقصدُه الجنودْ
وآلتِ الحربُ إلى ختامْ
وأُعْلِنَ السّلامْ
ووقَّعَ الكبارْ
أربعةٌ يلقّبونَ نفسَهم كبارْ
صَكَّ وجودِ الأمم المتْحدهْ
وأبحرتْ من شرقِ أوروبا مع الصباحْ
سفينةٌ تلعنُها الرّياحْ
وجهتُها الجنوبْ
تغصُّ بالجرذانِ.. والطاعونِ واليهودْ
كانوا خليطًا من سُقاطةِ الشعوبْ
من غربِ بولندا،
من النّمسا، من استنبولَ، من براغْ..

من آخِرِ الأرضِ.. من السَّعيرْ..
جاؤوا إلى موطِننا الصغيرْ
موطننا المسالم الصغيرْ
فلطّخوا ترابَنا
وأعدموا نساءَنا
ويَتَّموا أطفالَنا
ولا تزال الأُمَمُ المتّحدهْ
ولم يزلْ ميثاقُها الخطيرْ
يبحثُ في حُرّيةِ الشّعوبْ
وحقِّ تقريرِ المصيرْ
والمُثُل المُجَرَّدَهْ..
فَلْيَذْكُرِ الصّغارْ
العربُ الصّغار حيثُ يُوجَدونْ
مَنْ وُلِدوا منهمْ، ومَنْ سيولدونْ
قصّةَ إرهابيّةٍ مُجَنَّدَهْ
يدعونها راشيلْ
حَلّتْ محلّ أُمِّيَ الممدَّدَهْ
في أرضِ بَيَّارتِنا الخضراء في الخليلْ
أُمّي أنا الذّبيحةُ المستشهدهْ
وليذكرِ الصغارْ
حكايةَ الأرضِ التي ضَيَّعها الكبارْ
والأُمَمُ المتّحِدَهْ

أكتبُ للصّغارْ
قصة بئرِ السّبع، اللّطرون، والجليلْ
وأُختيَ القتيلْ
هناكَ، في بَيَّارَةِ الليمون، أُختيَ القتيلْ
هل يذكرُ الليمونُ في الرملةِ
في اللّدِّ
وفي الخليلْ..
أختي التي عَلَّقَها اليهودُ في الأصيلْ
من شعرها الطويلْ
أختي أنا نُوَارْ..
أختي أنا الهتيكةُ الإزارْ
على رُبى الرَّملةِ والجليلْ..
أختي التي ما زال جرحُها الطّليلْ
ما زال بانتظارْ
نهارِ ثأرٍ واحدٍ.. نهارِ ثارْ
على يدِ الصغارْ
جيلٍ فدائيٍّ من الصغارْ
يعرفُ عن نُوَارْ
وشَعْرِها الطويلْ
وقَبْرِها الضَّائعِ في القِفَارْ
أكثرَ مِمَّا يَعرفُ الكبارْ..

أكتبُ لِلصغارْ
أكتبُ عن يافا، وعن مرفئِها القديمْ
عن بقعةٍ غالية الحجارْ
يُضيءُ برتقالُها.. كخيمةِ النجومْ
تضمُّ قبرَ والدي، وإخوتي الصغارْ
هل تعرفونَ والدي
وإخوتي الصغارْ
إذ كان في يافا لنا
حديقةٌ.. ودارْ
يلفُّها النعيمْ
وكان والدي الرحيمْ
مُزارِعًا شيخًا يحبُّ الشّمسَ والترابْ
واللَّهَ والزيتونَ والكرومْ
كان يحبّ زوجَهُ
وبيتَهُ
والشّجَرَ المُثْقَلَ بالنجومْ
... وجاء أغرابٌ مع الغيابْ
من شرقِ أوروبا.. ومن غياهبِ السجونْ
جاؤوا كفوج جائع من الذِّئابُ
فأتلفوا الثّمارْ
وكَسّروا الغصونْ
وأشعلوا النيرانَ في بيادرِ النجومْ

والخمسةُ الأطفالُ في وجومْ
واشتعلتْ في والدي كرامةُ الترابْ
فصاحَ فيهم: اذهبوا إلى الجحيمْ
لن تسلبوا أرضي يا سلالةَ الكلابْ!
.. ومات والدي الرحيمْ
بطلقةٍ سدّدها كلبٌ من الكلابْ
عليه، ماتَ ماتَ والدي العظيمْ
في الموطنِ العظيمْ
وكَفُّهُ مشدودةٌ شدًّا إلى التراب.
فَلْيَذْكُرِ الصِّغارْ
العربُ الصّغارُ حيث يوجَدونْ
مَنْ وُلِدوا منهم.. ومَنْ سيولَدونْ
ما قيمةُ الترابْ
لأنَّ في انتظارِهمْ
معركةَ التّرابْ».

رغد: نعم.. نعم.. وأجمل ما قرأنا من شعرك وحفظناه قصيدة القدس:

«يا قدسُ، يا منارةَ الشَّرائعْ
يا طفلةً جميلةً محروقةَ الأصابعْ
حزينةٌ عيناكِ، يا مدينةَ البتولْ
يا واحةً ظليلةً مَرَّ بها الرَّسولْ
حزينةٌ حِجارةُ الشَّوارعْ

حزينةٌ مآذنُ الجوامعْ
يا قدسُ، يا جميلةً، تلتفُّ بالسّوادْ
مَنْ يقرعُ الأجراسَ في كنيسةِ القيامَهْ
صَبيحةَ الآحادْ؟!
مَنْ يحملُ الألعابَ للأولادْ
في ليلةِ الميلادْ..
يا قدسُ، يا مدينةَ الأحزانْ
يا دمعةً كبيرةً تَجُولُ في الأجفانْ
مَنْ يُوقِفُ العدوانْ
عليكِ يا لؤلؤةَ الأديانْ؟!..

• • •

يا قدسُ.. يا مدينتي
يا قدسُ.. يا حبيتبي
غدًا.. غدًا.. سيزهرُ اللَّيمونْ
وتفرحُ السَّنابلُ الخضراءُ والزيتونْ
وتضحكُ العيونْ
وترجعُ الحمائمُ المهاجرهْ
إلى السُّقوفِ الطَّاهرهْ
ويرجعُ الأطفالُ يلعبونْ
ويلتقي الآباءُ والبَنونْ
على رُبَاك الزّاهرهْ
يا بلدي..
يا بلدَ السّلام والزيتونْ»..

نزار: حلمت في البداية كما حلم الكثيرون من أبناء جيلنا بالعودة واسترداد الأرض التي ضاعت، ولكن الأيام مَرّت وفي كلّ يوم نكبة جديدة، كنّا نحلم بعودة فلسطين، صرنا الآن نريد فقط أن لا تحتلّ إسرائيل الباقي من أرضنا..

«يا مَنْ يعاتبُ مذبوحًا على دمه
ونزف شريانه، ما أسهلَ العَتَبا
مَنْ جَرَّب الكَيَّ، لا ينسى مواجعَهُ
ومَنْ رأى السّمَّ لا يشقى كمن شربا
حَبْلُ الفجيعةِ مُلْتَفٌّ على عُنُقي
مَنْ ذا يعاتبُ مشنوقاً إذا اضطربا
الشِّعرُ ليس حماماتٍ نُطَيِّرُها
نحو السَّماء، ولا نايًا.. وريحَ صَبَا
لكنّه غضبٌ طالت أظافرُهُ
ما أجبنُ الشِّعْرَ،إن لم يركبِ الغضبا».

تهزّ رغد رأسَها تقرأ في ورقة: اسمع ما قاله «رجاء النقّاش» الناقد المصري مرّةً أخرى عنك:

«لقد تغيّر نزار قباني بسبب أمانته وإحساسه بالقهر والجرح فترك كلَّ شيء وراءه ليعبِّرَ في شعره السّياسي عَمَّا يراه بقلبه ووجدانه في محنة الإنسان العربي في هذا العصر.

هذا التحوّل عند نزار، مهما كانت قيمته ومهما كان الرأي الفني فيه، هو الذي دفع نزار إلى كتابة قصائده الغاضبة.

لقد عاش نزار قباني ضمن المأساة، فقد طالت يد المأساة بيته فقتلت زوجته بلقيس. وعاش في بيروت مع طلقات الرّصاص والاغتيالات والسّيارات الملغومة ثم الاجتياح الإسرائيلي للبنان وعاصمته»..

تلمع عيناه ويقول: أليس الشّعر الحقيقيّ عملية انقلابية يخطّط لها وينّفذها إنسان غاضب وهو يريد من ورائها تغيير صورة الكون؟!

رغد: نعم.. نعم.. إنه كما تقول هو إشعال الحرائق في وجدان الناس وفي ثيابهم، وهو إشعال عود ثقاب في أشجار الغابة اليابسة.

يقول: لأنّ الغابة تصير أجمل عندما تشتعل، عندما يتحوّل كل غصنٍ من أغصانها إلى شمعدان.

رغد: وقد أشعلتَ الغاباتِ السّاكنة في داخل قرَّائك منذ دهور، عندما كتبتَ قصائدك الغاضبة فوضعت اليدّ مباشرة على الجرح لتنكأه.

فكلٌّ منا عندما يقف على الحدود الفاصلة بين بلد وبلد يتألّم ويتعذّب كيف يذهب الاستعمار ويترك بصماته خالدة لتُمَزِّقنا في كل لحظة..

نزار: أنا عندما كتبت عن «التأشيرة» لم أكن أقصد نفسي، فأنا كشاعر ودبلوماسي أستطيع أن أتجوّل أنّى شئت وقد تُفتح لي قاعات الشّرف في البلاد التي أزورها، إنما أنا أتكلم باسم شعبي، أبناء وطني العربي الكبير، الذين يحلمون وحقّهم أن يحلموا، بأن يضمَّ واحدهم تراب كل جزء من هذا الوطن دون تأشيرة أو إذلال لهم..

رغد: الحلم العربي..

نزار بألم: كيف يتحقّق الحلم العربي وما زلنا نصنع في كل يوم حواجز جديدة.

«في مركزٍ للأمنِ في إحدى البلاد النامِيَهْ
وقفتُ عند نقطةِ التفتيشِ،
ما كان معي شيءٌ سوى أحزانيَهْ
كانت بلادي بعد ميلٍ واحدٍ
وكان قلبي في ضلوعي راقصًا
كأنّه حمامةٌ مشتاقةٌ للسّاقِيَهْ
كان جوازي بيدي
يحلُمُ بالأرضِ التي لعبتُ في حقولِها
وأطعمتني قمحَها، ولوزَها، وتينَها
وأرضعتني العافيهْ

• • •

في مركزٍ للأمنِ في بلاديَهْ
وليس في الكونغو.. ولا تانزانيا
الشّمسُ كانت تلبسُ الكاكيَّ،
والأشجارُ كانت تلبسُ الكاكيَّ
والوردةُ كانت تَلبسُ الملابسَ المُرَقّطَهْ
كان هناكَ الخوفُ من أمامِنا
والخوفُ من ورائِنا
وضابطٌ مُدَجَّجٌ بخمسِ نجماتٍ.. وبالكراهيهْ
يَجُرُّنا من خلفه كأننا غَنَمْ
من يوم قابيلَ إلى أيّامِنا
كان هناك قاتلٌ محترفٌ

وأُمَّةٌ تُسلَخُ مثل الماشِيَهْ..

• • •

في مركزِ العذابِ، حيث الشَّمسُ لا تدورْ..
والوقتُ لا يدورْ
وحيثُ لا يبقى من الإنسان غيرُ اللّيفِ والقشورْ
يمتدُّ خطٌّ أحمرُ..
ما بين برلينَيْنِ، بيروتَيْنِ، صنعاءَيْنِ،
مَكَّتيْنِ، مُصْحَفَيْنِ، قِبْلَتَيْنِ،
مَذْهَبَيْنِ،
لهجتيْنِ،
حارَتَيْنِ،
شارَتَيْ مرورْ..
الرّعب كان سيّدَ الفصولْ
والأرضُ كانت تَشْحَذُ الأمطارَ من أيلولْ
ونحن كنّا نشحذُ الأمرَ الهَمَايونيَّ بالدخولْ..
واعجبي..
أكُلَّما استقلَّ شعبٌ من شعوبِ آسيا
يسوقُه أبطالُهُ لِلذَّبحِ مثلَ الماشيَهْ؟؟

• • •

أين أنا؟
ما بـــين كـــلِّ شارعٍ وشارعٍ..
قامتْ بلدْ..

ما بين كلِّ حائطٍ وحائطٍ..
قامت بلدْ..
ما بين كلِّ نخلةٍ وظِلِّها..
قامت بلدْ
ما بين كلِّ امرأةٍ وطفلِها..
قامتْ بلدْ..
يا خالقي: يا راسم الأُفْقِ، ويا مُهندسَ السَّماءْ
هل ذلك الثقْبُ الذي ليس يُرى
هو البلد؟؟؟
في مركزٍ للخوف لا اسمَ له
لكنّه...
ينبتُ مثلَ الفطرِ في كلِّ زوايا الباديَهْ
وقفتُ عمرًا كاملاً
وعندما أصبحتُ شيخًا طاعنًا
وافقوا على دخولي وطني
عرفتُ أن الوطن الغالي الذي عَشِقْتُهُ
ما عادَ في الجغرافيا...
ما عاد في الجغرافيا...
ما عاد في الجغرافيا...»

خبزٌ وحشيشٌ وقمر

كما العادة دائمًا تلال من الكتب على الطاولة وتحتها وعلى السّرير وفي كلّ مكان، وهي تغوص بين الأوراق المتناثرة، ولكن الورقة التي تريدها غير موجودة.. أوه ماأصعب البحث عنها الآن، تأخذ أحد الأقلام من على الطاولة تربط شعرها به وتبدأ بالبحث من جديد.. كل هذا ونزار واقف على الباب ينظر إليها مبتسمًا معجبًا بهذه الفوضى المحبّبة، تنتبه إليه أخيرًا.

يقول: لأول مرّة أجد فتاة باحثة تعمل بمثل هذه الجديّة، إن مَنْ يرى كتبك وأبحاثكِ يظن أن عمرك قد تجاوز السّتين.

تضحك: مُكْرَهٌ أخاك لا بطل، لا بدّ من العمل والعمل والعمل..

يجيب: ولكنك دائمًا تردّدين أنك تحبينه.

تقول: طبعًا أحبه، وخصوصًا إذا كان ضيفي هو الشّاعر الكبير نزار قباني..

يجلس على أحد الكراسي، يتناول ورقة من الأرض يقرؤها: «خبز وحشيش وقمر».

تصيح: أوه.. أبحث عنها منذ وقت..

يضحك: وماذا تريدين منها؟

تتناولها منه وتقرؤها وتقول: إن هذه القصيدة يا سيدي من أقوى قصائدك الرافضة لما فيها من تحليل وتعرّض لزوايا عديدة وسلبيات في المجتمع العربي، وهي تسلّط أضواءً كاشفة في ذلك الوقت المبكر على أمراض الشرق الاجتماعية.

يجيبها بعد تفكير: لقد كتبت هذه القصيدة في سبيل شرق أجمل وأفضل، شرق يرمي بخوره وتعاويذه وقرقرة نراجيله إلى الشيطان، وينتصب كالمارد في موكب حضارة مستعجلة لا تنتظر الحالمين.

رغد: إن حروفها من الصلصال الساخن، وهو ما جعل دمشق يومها تضربك بالحجارة والبندورة والبيض الفاسد.

تناوله الورقة وتقول له:

هَلاَّ قرأت لي القصيدة، أرجوك..

نزار مبتسمًا: وهل تظنيني أرفض أن أقرأ قصيدة لامرأة أُدركُ تمامًا أنها أفضل مستمعة وعارفة لشعري...

«عندما يولدُ في الشّرقِ القمرْ
فالسّطوحِ البيضُ تغفو تحتَ أكداسِ الزّهرْ
يتركُ النَّاسُ الحوانيت ويمضونَ زُمَرْ
لملاقاةِ القمرْ
يحملون الخبزَ والحاكي إلى رأسِ الجبال
ومعدّات الخَدَرْ
ويبيعون ويشرون خيال
وصور
ويموتون إذا عاش القمر
ما الذي يفعلُه قرصُ ضياء
ببلادي.. ببلاد الأنبياء
وبلاد البُسَطاء
ماضغي التبغ وتجّارِ الخَدَرْ

ما الذي يفعله فينا القمر
فنضيع الكبرياء
ونعيش لِنَستجدي السماء
ما الذي عند السّماء
لكسالى ضعفاء
يستحيلون إلى موتى إذا عاش القمر
ويهزّونَ قبورَ الأولياء
عَلَّها ترزقهم رزًا وأطفالاً.. قبور الأولياء
ويمدّون السّجاجيد الأنيقات الطّرر
يتسلّون بأفيونٍ نُسَمّيه قدر
وقضاء
في بلادي.. في بلاد البسطاء

• • •

أيّ ضعف وانحلال
يتولاّنا إذا الضوء تدفّق
فالسّجاجيد وآلاف السّلال
وقداح الشّاي والأطفال تحتلّ التلال
في بلادي حيث يبكي السّاذجون
ويعيشون على الضوء الذي لا يبصرون
في بلادي حيث يحيا النّاس من دون عيون
حيث يبكي السّاذجون
ويصلّون.. ويزنون.. ويحيون اتّكال

وينادون الهلال: يا هلال
أيُّها النبع الذي يمطرُ ماس
وحشيشًا ونُعاسْ
أيّها الرَّبُّ الرّخاميّ المُعَلَّق
أيّها الشّيءُ الذي ليس يُصَدَّقْ
دمتَ للشّرقِ.. لنا عنقودَ ماس
للملايين التي قد عُطِّلَتْ فيها الحواسْ..

• • •

في ليالي الشّرق لمّا يبلغ البدر تمامه
يتعرّى الشّرقُ من كلّ كرامه
ونضال
فالملايين التي تركض من غير نعال
والتي تؤمنُ في أربع زوجات وفي يوم القيامه
الملايين التي لا تلتقي بالخبز إلا في الخيال
والتي تسكن في الليل بيوتًا من سعال
أبدًا ما عرفت شكلَ الدّواء
تتردّى جُثَثًا تحت الضيّاء
في بلادي حيث يبكي الأغبياء
ويموتون بكاء
كلّما طالعهم وجه الهلال
ويزيدون بكاء
كلّما حَرّكهم عود ذليل وليالي

ذلك الموت الذي ندعوه في الشرق: ليالي
وغناء
في بلادي.. في بلاد البسطاء
حيث نجترُّ التواشيحَ الطويلهْ
ذلك السّلّ الذي يفتكُ بالشّرق.. التواشيح الطويله
شرقُنا المجترّ تاريخًا وأحلامًا كسوله
وخرافات خوالي
شرقنا الباحث عن كلّ بطوله
في أبي زيد الهلالي».

في قصر الحمراء

الدّاخل في غابة الحمراء في غرناطة كالغارق في أسطورة من الأساطير الخيالية تحمله إلى عالم السّحر والأميرات الساحرات..

مشاعر الرهبة والوجل تكلّل نزار ورغد وهما يمشيان في الغابة المحيطة بقصر الحمراء.. كثافة الفروع لا تترك مجالاً لنفاذ أشعّة الشّمس، والنّسمات المنعشة تهزّ الأشجار برفق وترطّب الوجوه المحترقة.. والماء ينساب بين الصخور، أما الطيور المتنوّعة الأشكال والألوان فتصدحُ بأجمل النغمات...

وفي لحظات تَأمُّلِ القصر والآثار الرائعة تتدفّق ذكريات ثمانية قرون مرّت في هذا المكان فكوّنت حضارة أصيلة، عربية السّمات قامت على سواعد العرب المسلمين.. ينظران إلى النقوش والزخارف التي تتكرّر فيها عبارة: «لا غالب إلا اللّه» وكثير من الحكم والأشعار المنقوشة بخطوط عربية.

تقول رغد: كل ما في القصر يروي حكاية صراع أليم انتهى بضياع الأندلس.

نزار بألم: الحديث عن إسبانيا حديث ذو شجون.. إن إسبانيا بالنّسبة للعربي هي وجع تاريخيّ لا يُحتمَل، فتحت كلّ حجر من حجارتها ينام خليفة ووراء كلّ باب خشبيّ من أبوابها عينان سوداوان، وفي غرغرة كلّ نافورة في منازل قرطبة صورة امرأة تبكي فارسها الذي لم يعد.

رغد: ثمانية قرون كانت خير مسرح تألّقت فيه أمجادنا.. لقد تجلّت عبقرية الفكر العربي في الأندلس في العلوم والفنون والأدب والموسيقى والرّسم

والرّياضيات، وتجلّت في فن البناء فشيّدت المدن والقلاع والحصون والمساجد. وأيضًا أثبتت مهارتها في فن الحكم والسّياسية..

نزار: ولا تنسي أنها كانت مميَّزةً في الزّراعة والريّ، ففي العهد العربي اخضرَّت السّهول والقفار في الأندلس، وأزهرت البساتين والهضاب.

رغد (مقاطعة): لأن أجدادنا نقلوا إليها أشجارًا من الشرق كالزيتون والليمون والنارنج، ونباتات كالزعفران، وأزهارًا كالياسمين والريحان والخزامى..

تنظر إلى أبيات شعرية مكتوبة وتقرأ بصوت عال:

فِـقْـتُ الحِـسـانَ بِـحُـلَّـتـي وبِـتـاجـي
فـهـوتْ إليَّ الـشُّـهُـبُ في الأبـراجِ..

تستدير إليه وتقول: لقد جسّدتَ الألم الذي يباغت كُلًّا منا عندما يأتي إلى هذا المكان ويرى آثار أجدده الذين ذهبوا ولم يبقَ منهم إلا الألم في الذاكرة..

نزار: نعم قصيدة «غرناطة»، يقرأ:

«في مدخل الحمراء كان لقاؤنا
ما أطيبَ اللُّقْيَا بلا ميعادِ
عينان سوداوان في حَجَريْهما
تتوالدُ الأبعادُ من أبعادِ
هل أنتِ إسبانيّةٌ؟.. ساءلْتُها
قالت: وفي غرناطةٍ ميلادي
غرناطة!! وصَحَتْ قرونٌ سبعةٌ

في تَـيـنـكَ الـعـيـنين.. بـعـدَ رُقَـادِ
وأمَـيَّـةٌ.. رايـاتُـهـا مـرفـوعـةٌ
وجـيـادُهـا مـوصـولـةٌ بـجـيـادِ
ما أغـربَ الـتـاريـخَ.. كيف أعـادني
لحـفـيـدةٍ سـمـراءَ.. مـن أحـفـادي
وجـهٌ دمـشـقـيٌّ.. رأيـتُ خـلالَـهُ
أجـفـانَ بـلـقـيـس.. وجـيـدَ سعادِ
ورأيـتُ منزلنا الـقـديمَ.. وحُـجْـرَةً
كـانـتْ بـهـا أمّـي تَمُـدُّ وسـادي
والـيـاسـمـيـنـةَ رُصِّـعـتْ بنجومِها
والـبـركـة الـذهـبـيـةَ الإنـشـادِ
ودمشقُ.. أين تكونُ؟ قلتُ: تَرَيْنَها
في شـعَـركِ المُـنْـسَـابِ نـهـرَ سـوادِ
في وجهكِ العربيِّ، في الثَّغْر الذي
مـا زال مختـزنـاً شـمـوسَ بـلادي
في طِيبِ «جَنّاتِ العريف» ومائِها
في الفُـلِّ، في الرَّيحان، في الكَبَّادِ
سارتْ معي.. والشَّعْرُ يلهثُ خلفَها
كـسـنـابـلٍ تُـرِكَـتْ بـغـيـر حـصـادِ
يـتـألَّـقُ الـقُـرْطُ الـطـويـلُ بجيدِها
مـثـلَ الـشـمـوع بـلـيـلـةِ المـيـلادِ
ومشيتُ مثلَ الطفل خلفَ دليلتي

ووراءَ التاريخُ.. كومُ رمادِ
الزّخرفاتُ أكادُ أسمعُ نَبْضَها
والزّركشاتُ على السقوفِ تنادي
قالتْ: هنا الحمراءُ.. زَهْوُ جدودِنا
فاقرأْ على جدرانِها أمجادي
أمجادُها؟ ومسحتُ جرحاً نازفاً
ومسحتُ جرحًا ثانياً بفؤادي
يا ليتَ وارثتي الجميلةَ أدركتْ
أنَّ الذين عَنَتْهُمُ أجدادي
عانقتُ فيها عندما وَدَّعْتُها
رجلاً يُسَمَّى «طارقَ بنَ زيادِ».

رغد: إنّه إحساسنا جميعًا، ولكن أليس الفتح الإسلامي يومها هو غزو واحتلالٌ لبلاد الأندلس؟!

تلمع عيناه بشدّة ويقول: كلُّ الفاتحين زرعوا الموتَ والرعب والدّمارَ حيث مَرّوا، باستثناء الفتح العربي الذي حمل معه شتول النخيل وأشجار النارنج وقصائد الشّعر. الفتح العربي هو أول فتح في الدنيا كان لديه مُتَّسَع من الوقت لكتابة الشعر.

رغد: نعم.. يصرّح الإسبان بأن الفتح الإسلامي في بلادهم كان عنوانًا للتسامح والرقيّ، وأنه كان ينبوعًا لحضارة أندلسية عربية مشتركة خلّفت لهم تراثًا فنيًا وأدبيًا وآثارًا خالدةً.

نزار: بمحبةٍ دخل العرب إلى الأندلس، وبمحبّة خرجوا منها تاركين دموعهم

في نوافير الماء في حدائق جنات العريف، بغرناطة، وحنينهم نقوشًا من الذهب على الجدران قصر الحمراء وسقوفه وأقواسه الخرافية.

إن الأعوام الثمانمائة التي قضاها العرب في إسبانيا لا يمكن أن تُفَسَّر إلا بمصطلح العشق وحده.

رغد: أتعلم كلّ ما يحيط بنا في إسبانيا يذكّرنا بدمشق.. روائح الياسمين وعبير الأضاليا والنارنج والورد البلدي.

ينظر إلى القطط البيضاء تتمدّد بكسل ويقول مبتسمًا:

حتى مواء القطط في حدائق العريف دمشقيّ، ما من مرّة جئت بها إلى غرناطة ونزلت فيها فندق الحمراء إلا ونامت دمشق على مخدّتي الأندلسية.

رغد: إن لإسبانيا تأثيرًا كبيرًا على شعرك في الفترة التي كنتَ فيها هنا، وهذا واضح في مجموعتك "الرّسم بالكلمات".

نزار: تغلغلت إسبانيا في مساماتي وحروفي وفواصلي، وأصبح نبض الكاستانويلاس في أصابع راقصات الفلامنكو جزءًا من نبضي ونبض كلماتي..

الأزقة الضّيقة في قرطبة القديمة تحاكي مثيلاتها في دمشق القديمة، تتدلّى عناقيد الخبيزة من شرفات البيوت، يقف الشاعر أمام أحد البيوت، يغمض عينيه ويقول:

«في أزِقّةِ قرطبة الضيّقهْ
مددتُ يدي إلى جيبي
أكثر من مَرّهْ..
لأخرجَ مفتاحَ بيتي في دمشق

أحواض الشمشير
واللّيلك
والقرطاسيا
البحرة الوسطى
عين الدار الزرقاء
الياسمين الزاحف
على أكتافِ المَخادع
وعلى أكتافنا
النافورةُ الذهبية
طفلةُ البيت المُدَلّلَة
التي لا تنشف لها حنجرة
والقاعاتُ الظلّيلة
أواني الرّطوبة.. ومخبؤها..
كلُّ هذه الدنيا المُطَيَّبَة
التي حضنتْ طفولتي في دمشق
وجدتُها هنا..
فيا سيّدتي،
المُتَّكِئَة على نافذتها الخشبية
لا تراعي،
إذا غسلتُ يدي في بحرتك الصغيرة
وقطفتُ واحدة من ياسميناتك
ثم صعدتُ الدرجَ.. إلى حجرةٍ صغيره

حجرةٍ شرقيّةٍ.. مُطَعَّمَةٍ بالصّدف
تتسلّقُ شبابيكَها الشمسُ.. ولا تسألْ
ويتسلَّقُ أستارَها اللّيلكُ.. ولا يسألْ
حجرةٍ شرقيّة..
كانت أمّي تنصبُ فيها سريري»..

رغد: إلى هذا الحدّ تشبه المنازلُ بيوتنا الدمشقية..

يدخلان إحدى الدّور العربية الطابع التي تحوّلت إلى مطعم يدخله السوّاح.. دار فسيحة مؤلّفة من طابقين تتوسّط صحنها بركة ماء كبيرة، جنّة داخليّة يفوح منها أرج النارنج والياسمين، ويغازل خريرُ الماء في صحونها الطيورَ المعشِّشة في أغصانها..

الموسيقى الإسبانية ترتفع في جنبات المكان، والغناء المعروف «فلامنكو» الشّديد الصلة بالموسيقى الشّرقية وبأسلوب الغناء العربي..

يجلسان على إحدى الطاولات، كلّ ما في الجوّ يعبق برائحة الوطن وبقصة عشق قديمة..

يقول نزار كالحالم:

«فْلامنكو..
فلامنكو..
وتستيقظُ الحانةُ الغافيَهْ
على قهقهاتِ صنوجِ الخشبْ
وبحّةِ صوتٍ حزينِ
يسيلُ كنافورةٍ من ذهبْ

وأجلسُ في زاويهْ
أَلُمُّ دموعي
ألمُّ بقايا العربْ..»

رغد: أخيرًا.. هذه هي إسبانيا التي في أحلامنا والتي عاش فيها أجدادنا وأسَّسوا فيها تلك الحضارة العظيمة التي ما تزال آثارها حتى اليوم..

يقول نزار (بعد أن يتأملها): آثارها باقية حتى في ملامح أبنائها، انظري أكثر الفتيات هنا يحملن نفس الملامح التي تحملينها، الملامح العربية الأصيلة، العيون السّوداء اللامعة والشّعر الأسود والبشرة السّمراء.. إنها ملامح من بلادي..

رغد: وأجمل الآثار الموشّحات الأندلسية الخالدة إلى يومنا هذا..

نزار: نعم.. نعم.. إسبانيا دفتر عشقنا القديم الذي نتمنّى أن نفتحه ونخاف أن نفتحه..

إنه شالٌ أحمر يحرضّ على الموت حُبًّا..

كلُّ عربيّ لا يذهب إلى إسبانيا يعطيني الانطباع بأنه تلميذ راسب في مادة اللغة العربيّة، ومطرود من درس التّاريخ..

رغد: ورغم رسوب أجدادنا في التّاريخ وانسحابهم من أجمل بقاع العالم، نتمنّى أن ننجح على الأقل في الحفاظ على الذّكرى التي تركوها، وأن يكون في هزيمتهم درسًا لنا أن نتمسّك بأرضنا فلا نضيعها كما أضعنا الأندلس.

شِعرٌ وأغنيّة

تنطلق السّيارة بهما على طريق الجبل في لبنان، نزار يجلس صامتًا يستمع أغنية لنجاة الصغيرة «ماذا أقول له» تقول رغد مقاطعة انسجامه: الغريب أنك عبّرت عن عواطف المرأة ومشاعرها وميولها وانفعالاتها غفرانًا، وصفحًا أو نقمةً وهجرانًا ببراعة مدهشة؟

ينظر إليها ويقول مبتسمًا: كنت مستمتعًا بصوت نجاة الرائع وقد قاطعت ذكريات كثيرة تتعلق بهذه الأغنية بالذات..

قالت: سأعيد لك الأغنية من أولها على أن تجيبني أولاً على أسئلتي..

قال: حسنًا.. ربما نجاحي في التعبير عن مشاعر المرأة هو أنني أمتلك مخزونًا كبيرًا في ذاكرتي من كلمات النّساء وأحاديثه معي ورسائلهنّ مما ساعدني في التّعبير..

رغد: حتى إنك تنقل ببراعة الآهات الأنثوية التي يمتزج فيها الألم باللوعة.

نزار: إنها التجربة وعمقها يا عزيزتي..

رغد: والآن.. كلّمني عن الذّكريات الخاصة بهذه الأغنية..

نزار: أوه.. الأيام تعود بي الآن إلى عام 1965، يوم كنت في مدريد.. ويوم علمت أن الأغنية ستقدّم على الهواء في ليلة عيد الفطر..

يومها كنت أنكش كالعصفور الجائع في جهاز الراديو بحثًا عن الكنز المخبوء في صوت نجاة وأصابع عبد الوهاب..

مؤشّر الراديو مثبت على القاهرة.. وأعصابي مشدودة كحبال سفينة توجه الدقائق الحاسمة..

ودموعي كأمطار البلاد الاستوائية، تتساقط بعنف وباستمرار.
وينطلق صوت من الراديو: هنا القاهرة.. ولكن أين مني القاهرة؟! وأين أحبابي فيها..
كم أشعر بالحزن، بالتمزّق.. وكأنني سندباد منفيّ في كوكب آخر..
أليس خيانة أن لا أحضر عرس كلماتي؟ لماذا أنا في إسبانيا في مثل هذه الليلة، بينما مكاني الأساسي هو في سينما قصر النيل حيث يجب أن أعانق منه كلماتي بعد خمس سنوات من الرّحيل والطواف والغربة..
تعيد رغد الأغنية من أولها ويستمعان إليها بينما نزار يردِّد الكلمات مع صوت نجاة:

«ماذا أقولُ له لو جاء يسألُني..
إن كنتُ أكرهه أو كنتُ أهواهُ؟
ماذا أقولُ له، إذا راحتُ أصابعُهُ
تلملمُ الليلَ عن شَعري وترعاهُ
وكيف أسمحُ أن يدنو بمقعده
وأن تنامَ على خصري ذراعاهُ؟
غدًا إذا جاء.. أعطيه رسائلَهُ
ونطعمُ النارَ أحلى ما كتبناهُ
حبيبتي!.. هل أنا حقًّا حبيبتُهُ
وهل أُصَدِّقُ بعد الهجر دعواهُ؟
أما انتهتْ من سنين قصَّتي معه؟
ألم تمتْ كخيوطِ الشّمس ذكراهُ
أما كسرنا كؤوسَ الحبِّ من زمن

فكيف نبكي على كأس كسرناه؟..
رَبّـــاه.. أشـيـاؤه الـصـغرى تُـعَذِّبُـني
فـكـيـف أنجـو مـن الأشـيـاء رَبّـــاهُ؟
هـنـا جـريـدتُـهُ في الـرُّكْـن مُـهـمَـلَـةٌ
هـنـا كـتـابٌ مـعًـا.. كـنّـا قـرأنـاهُ
عـلـى المـقـاعـدِ بـعـضٌ مـن سـجـائـرِهِ
وفي الـزوايـا.. بـقـايـا مـن بـقـايـاهُ..
مـا لي أُحَـــدّقُ في المـــرآةِ أسـألُـهـا
بـــأيِّ ثـــوبٍ مـن الأثـــوابِ ألـقـاهُ
أأدّعـــي أنـنـي أصـبـحـتُ أكـرهُـهُ
وكـيـف أكـرهُ مَـنْ في الجفن سكناهُ؟
وكـيـف أهـــربُ مـنـه؟ إنّـــه قَـدَري
هـل يملكُ الـنـهـرُ تـغـيـيرًا لمـجـراهُ؟
أُحِـبُّـهُ.. لـسـت أدري مـا أُحِـبُّ به
حـتَّـى خـطـايـاه مـا عـادتْ خـطـايـاهُ
الحـبُّ في الأرضِ بـعـضٌ مـن تَـخَـيّـلِـنـا
لـو لم نَجِـدْهُ عـلـيـهـا.. لاخـتـرعـنـاهُ
مـاذا أقـولُ لـه لـو جـاء يـسـألُـنـي
إنْ كـنـتُ أهـــواه..
إنّي ألـــف أهـــواه..».

نزار: رائع.. رائع... لقد بلغ عبد الوهاب قمّة إعجازه الفني في هذا المقطع الأخير.. إنني لم أسمع في حياتي نهاية موسيقية كهذه النهاية..

رغد: وصوت نجاة؟

رغد: نزار: أوه.. صوت نجاة يختصر الأنوثة كلّها، ونساء الشّرق يختبئن في حنجرتها الحريرية..

رغد: كما يختصر شعرك المشاعر الأنثوية كلّها في لقطات إنسانية من الحياة اليومية؟

نزار: لأنني أعايش المرأة عن قرب، وأرى مشاكلها وأراقبها بدقّة وأحسّ بإحساسها بصدق.

رغد: كما في قصيدة (اغضب) التي غنّتها أصالة، فأنت دخلت حقًّا إلى أعماق الأنثى المحبّة التي تعرف كلّ الملابسات التي تصاحب بدايات حالة الغضب وتطوراتها، وهي تعرف أن الرجل هو طفل كبير لذلك فهي تسامحه على غضبه لأنها تعرف أنه سيعود إليها يومًا..

نزار: هل الأغنية معك؟..

رغد: طبعًا، وهل تظنّ أن قصيدة ما غُنِّيَتْ ولا أحتفظ بها ما دام الشعر لك؟

نزار: حسنًا ضعيها إذن..

رغد: أنت اخترت الملحن حلمي بكر لتلحين الأغنية كما اخترت أصالة لتغنّيها؟

نزار: نعم. فليست كلّ الأصوات الغنائية تناسب شعري، فهو يحتاج إلى أصوات مثقّفة واعية ومدرَّبة ولها مواصفات خاصة..

رغد: ويحتاج أيضًا إلى ملحن يكون لديه إلمام جيّد بالتناول المسرحي وكيفية تقديمه نصًّا ولحنًا وأداءً.

نزار: نعم.. لا بد من التكامل بين اللحن والصّوت والشّعر..

ينطلق صوت أصالة:

«اغضبْ كما تشاء..
واجرحْ أحاسيسي كما تشاء
حَطّم أواني الزّهر.. المرايا
هَدِّدْ بِحُبِّ امرأةٍ سِوايا
فكلُّ ما تفعلُهُ سَواء
وكلُّ ما تقولُه سَواء
فأنتَ كالأطفالِ يا حبيبي
نحبُّهم مهما لنا أساؤوا

• • •

اغضب..!
فأنتَ رائعٌ حَقًّا متى تثورْ
اغضبْ..
فلولا الموج ما تَكَوَّنتِ البحورْ
كنْ عاصفًا كنْ مُمْطِرًا
فإنَّ قلبي دائمًا غفورْ..

• • •

اغضبْ..
فلن أُجيبَ بالتحدّي
فأنتَ طفلٌ عابثٌ
يملؤه الغرورْ
وكيفَ من صِغارِها
تنتقمُ الطيورْ؟!...»

رغد: رائع.. وهي طبعًا لا تمانع أن يبتعد ما دام سيعود عارفًا قيمتها..

«اذهبْ..

إذا يومًا مللتَ منّي

واتّهم الأقدارَ واتّهمني

أما أنا فإنّي سأكتفي بدمعتي وحزني

الصّمت كبرياءْ

والحزن كبرياءْ

اذهبْ

إذا أتعبَكَ البقاءْ

فالأرض فيها العطرُ والنّساءْ

والأعينُ الخضراءُ والسّوداءْ

وعندما تريد أن تراني

وعندما تحتاج كالطفل إلى حناني

فَعُدْ إلى قلبي متى تشاء

فأنت في حياتيَ الهواء

وأنت.. عندي الأرض والسماء

اغضب كما تشاء

واذهبْ.. متى تشاء

لا بدَّ أن تعود ذات يوم

وقد عرفتَ ما هو الوفاءْ».

رغد: جميل.. ولكن هذه الصّورة سلبية للمرأة، فلماذا تنتظر المرأة رجلاً يتركها ويذهب ليحب ويراهق على أمل أن يعود تائبًا؟

نزار: لقد صورت في قصائد أخرى نماذج لنساء غير هذه التي تنتظر عودة الحبيب الهاجر.. كما في طوق الياسمين..

رغد: سنسمعها بعد قليل ولكن.. اسمع هذه الأغنية «أعنف حبّ عشته» بصوت لطيفة، أيضًا هي تعبير عن عواطف المرأة وبأجمل الصور والألفاظ..

«تلومُني الدنيا إذا أحببتُه
كأنني.. أنا خلقتُ الحبَّ واخترعتُه
كأنني أنا على خدودِ الوردِ قد رسمتُه
كأنني أنا التي
للطير في السماءِ قد عَلَّمْتُهُ
وفي حقولِ القمحِ قد زرعتُهُ
وفي حياة البحرِ قد ذَوَّبتُهُ
كأنني.. أنا التي
كالقمرِ الجميلِ في السماءِ
قد عَلَّقتهُ
تلومُني الدنيا إذا
سَمّيتُ مَنْ أحِبُّ.. أو ذكرتُهُ
كأنني أنا الهوى
وأمّه.. وأُختُه.

• • •

هذا الهوى الذي أتى..
من حيث ما انتظرتُهُ
مختلفٌ عن كلّ ما عرفتُهُ
مختلفٌ عن كلّ ما قرأتُهُ
وكلّ ما سمعتُهُ
لو كنتُ أدري أنّه
نوع من الإدمانِ.. ما أدمنتُهُ
لو كنتُ أدري أنه
عودٌ من الكبريتِ.. ما أشعلتُهُ
هذا الهوى.. أعنف حبٍّ عشتُهُ
فليتني حين أتاني فاتحاً
يديه لي.. رددتُه
وليتني من قبل أن يقتلني.. قتلتُه

• • •

هذا الهوى الذي أراه في اللّيلِ
على ستائري..
أراه.. في ثوبي..
وفي عطري.. وفي أساوري
أراه.. مرسومًا على وجه يدي
أراه منقوشًا على مشاعري
لو أخبروني أنّه
طفلٌ كثيرُ اللَّهْوِ والضوضاءِ.. ما أدخلتُهُ

وأنه سيكسرُ الزجاجَ في قلبي لما تركتُهُ
لو أخبروني أنه
سيضرمُ النيرانَ في دقائقٍ
ويقلبُ الأشياءَ في دقائقٍ
ويصبغُ بالأحمرِ والأزرقِ في دقائقِ
لكنتُ قد طردته..
يا أيها الغالي الذي
أرضيتُ عَنّي اللّهَ.. إذ أحببتُهُ
هذا الهوى أجملُ حُبٍّ عشتُه
أروع حبٍّ عشتُه
فليتني حني أتاني زائرًا
بالوردِ قد طَوّقْتُه
وليتني.. حين أتاني باكيًا
فتحتُ أبوابي له.. وبستُهُ
وبستُه.. وبستُهُ»..

بين القديم والجديد

رغد جالسة في غرفتها وأكوام الكتب على الطاولة أمامها وعلى الكراسي، الشّاعر يمسك أحد الكتب ويتصفّحه.. «الغزل عند العرب».

تقول: لقد احتلّ حديث القلب وحكاية الحب في حياة العربي مكانًا رحبًا فخلّف لنا الكثير من شعر الغزل، ولكن الشّاعر في كلّ هذا كان يتحدّث عن نفسه ويرسم مشاعره وعواطفه وأهواءه ورغباته، ويتحدّث عن معشوقته حديث الراغب المشتهي ليشفي علّة جسده ولينقع غلّة قلبه، لا يعنيه من أمرها ما هي عليه من عقل وما وراء جمالها من فكرة وما بين جنبيها من همّ أو مثل عليا..

نزار: هذه النظرة للمرأة سببه الحياة المتنقّلة للعرب بسبب الغزوات والفتوحات، فهم لم يستطيعوا السّكون إلى المرأة سكونًا تامًا يسمح لهم باستبطانها واكتشافها روحيًا.

إن التجريد الذهني محصول حضاري لا يصل إليه الإنسان إلا في ظلّ العلاقات المطمئنة، وعلاقات العربي بالجنس الثاني كانت علاقات عصبية لاهثة ومستعجلة.

رغد: لهذا نجد أن الشّاعر القديم لا يُحَلِّق في رسم عواطف المرأة ورغباتها وأهوائها وإنما يحوم حول نفسه ويجعلها المثال المنشود.. وأنت؟

نزار بعد تفكير: أنا كنت مخلصًا في داخلي لميراث القبيلة، ففي أشعاري الأولى كنت أدور دائمًا حول حدود المرأة الخارجية..

رغد: لذلك فقد عبَّر شعرك عن الحبّ الشّهوة واتّسم بالتوتر والعصبية.

نزار: لأن الحبّ في تلك الأيام كان حبًا مقهورًا ومحظورًا ومسروقًا من ثقوب الأبواب.. أما الجنس فكان مادّة محرّمة لا تباع إلا في السّوق السّوداء أو في بيوت ممتهنات الهوى..

وحين يختلس الإنسان الحب اختلاسًا، وتتحوّل المرأة إلى شريحة لحم نتعاطاها بالأظافر.. ينتفي الوجه الحضاري للحب، وتنتفي أية صيغة إنسانية للحوار، ويصبح الغزل رقصة همجية حول ذبيحة ميّتة.

رغد: ورغم الكبت الذي تقول عنه، فإن الصّورة الشّعرية في قصائدك الأولى، ورغم خلوّها من العاطفة ومعرفة الآخر، تتميّز بالحيوية والأناقة كما أن الانفعال لا يحمل بداخله إلا إثارة بطيئة تميل إلى الهدوء، والتأمل أكثره ممّا تميل إلى الشّهوة.

نزار: لأن المرأة بالنّسبة لي هي موضوع فني، لوحة أو قصيدة أو تمثال أكثر منها موضوع حسّي يثير الرغبة أو الشهوة..

رغد: وهذه النظرة طبعًا نتيجة لموقف المتذّوق، فأنت شاعر همّه الجمال لا جميلة معيّنة.

تخرج رغد بعض الأوراق وتقدّم له قصيدة (إلى ساق) وتقول: هذه القصيدة لوحة فنيّة رائعة لجسد المرأة رغم أن الوصف الحسيّ فيها طاغ.

نزار مبتسمًا: حسنًا يا عزيزتي، لا تنسي أن هذه القصيدة ومثيلاتها هي بداية منطقية لشاعر شاب متمرّد يريد أن يكسر القيود وينطلق معبّرًا بحريّة كاملة عن رؤيته الخاصة. يقرأ:

«يـا انضفارَ الـرّخـام.. جـاعَ بـيَ الجـوعُ
لـــدى رَفَّـــةِ الـــرِّدا المـســحـوبِ..

قيلَ: ساقٌ تَمُرُّ.. وارتجفَ الفلُّ
حبالاً على طريقٍ خصيبِ
إنّها طفلةٌ سماويّة العين
بفِيها، بَعْدُ، اخضلالُ الحليبِ
عربدت ساقُها.. نُهْيرَ أناقاتٍ
وسالَ البريقُ في أنبوبِ..
اقعدي.. برعمي الصغيرَ.. استقرّي
بعروقي، بجفنيَ المتعوبِ
أيَّ إثّمَيْن أشقرّيْن.. تمدّينّ؟
أضيفي إلى سجلِّ ذنوبي
ولدى الرّكبتين.. تعوي شراهاتي
على ثَنْيَةِ اسمرار رهيبِ
يا صليبَ الإغراء.. من خُصْلَتَيْ زهر
شفاهي لمسح هذا الصليبِ
يا دروبَ الحرير.. ماتت مسافاتي
وقالت: لقد تعبتُ.. دروبي
اذهبي.. غَيِّري مكانكِ.. إخفي
ترفَ السّاق.. أنتِ أصلُ شحوبي
أدخليها لوكرها.. كلُّ عِرقٍ
من عروقي يصيحُ: أينَ نصيبي؟..»

رغد: واضح جدًا تساميك باتجاه عبادة الجمال وتأمّله واستجلاء نواحي الفتنة والإغراء.

نزار: إن التعبير عن الحبّ في هذه الفترة هو غزل المراهقين وعبث اللاهثين..

رغد: حسنًا لقد اتّكأت منذ البداية على مشكلة كبيرة في المجتمع العربي هي مشكلة المرأة، ولعبتَ على وتر الجوع الجنسيّ فاستقطبت الكبار والصغار والمراهقين وغير المراهقين..

نزار: إذا لم يتّكئ الفنان على قضية ما، فعلى أيّ شيء يتّكئ؟.. على الهواء، أم على التخيُّل والتجريد؟. بضاعتي كلّها محليّة، والتّراب الذي أعجن به نماذجي هو تراب دمشقيّ ولبنانيّ وعراقيّ ومصريّ وخليجيّ.. قصائدي عن المرأة ليست أفلامًا جنسية ولكنها وثائق اتَهام تحمل تواقيع سبعين مليون امرأة عربية..

رغد: وأنتَ حملت لواء تحرير المرأة ولكنك بدأت من الخارج أي من جسد المرأة، وأنت تعلم أن هناك خطوات كثيرة يجب أن تعلمها المرأة قبل أن تنال حريتها الجسدية؟

نزار: أنا أعترف أن قصائدي الأولى هي اهتمام بجسد المرأة وما يتصل به من ثوب وعطر وألوان، إنه عالم المرأة الحميم والذي كان عالمًا سرّيًا بالنسبة لنا آنذاك.

رغد: على كلّ حال.. إنها شجاعة كبيرة منك أن تقفز فوق الأسوار وتقتحم عالم المرأة وتدخل إلى مخدعها فتكتشف عالمها الخاصّ وتكشفه إلى الملأ...

يبتسم: دخلت مخدعها وكشفت عالمها المسحور الذي كنّا نحلم ولو برؤيته عن بعد..

رغد: وبعد اندفاعات المراهقة الأولى، سار شعرك في تقدّم مُطَّرِد، فأصبحت تتعامل مع المرأة كروح وشعور وانتقلت من الجسد الأنثوي إلى النفس الأنثوية.

نزار: لأنني عرفتها عن قرب، وعرفت أن المرأة مخلوق تُحِبُّ، فتحوّلت اهتماماتي إلى الداخل وأصبحت أحسّ أنني مُلْزَمٌ بالتعبير عمّا يدور في نفسها وملزمٌ بالدفاع عن حريّتها:

«ثوري.. أُحِبُّكِ أن تثوري
ثوري على شرقِ السّبايا.. والتكايا.. والبخورِ..
ثوري على التاريخِ، وانتصري على الوهم الكبيرِ
لا ترهبي أحدًا. فإن الشمسَ مقبرةُ النسورِ
ثوري على شرقٍ يراكِ وليمةً فوق السريرِ».

رغد: في قصيدة الحزن، تنقل لنا تجربة الحزن والوحدة في حالة الحبّ، نقلاً مؤثرًا ومعبِّرًا إلى حدود بعيدة، إنها تأخذنا إلى عالم تخلقه من الأمنيات والأحلام، إنه أسلوب اللعب بالذكريات البيضاء الغافية التي توقظ الطفل الحالم الراقد فينا..

نزار: جميل هو التحليل للقصيدة، بالرغم مما فيها من تشرّد نفسي وواقعي يجعلها سفرًا للضياع في مدن الأحزان والأمطار..

يلتفت إلى المسجل، يختار شريطًا لكاظم السّاهر، يضعه ويحضّر نفسه للاستماع للأغنية.. تترك رغد طاولتها وتستريح على أحد المقاعد وتغمض عينيها منتقلة إلى عالم الموسيقا والكلمة الرائعة والصّوت الجميل..

«علّمني حُبُّكِ.. أن أحزنْ
وأنا محتاجٌ منذ عصورْ
لامرأةٍ تجعلني أحزنْ
لامرأةٍ أبكي فوقَ ذراعيها
مثلّ العصفورْ
لامرأةٍ.. تجمعُ أجزائي
كشظايا البللّور المكسورْ
علّمني حُبُّكِ، سيّدتي، أسوأَ عاداتْ
علّمني.. أفتحُ فنجاني
في اللّيلةِ، آلاف المرّاتْ
وأجَرِّبُ طِبَّ العَطّارينَ
وأطرقُ بابَ العَرَّافاتْ
عَلَّمني أخرجُ من بيتي
لأُمشِّطَ أرصفةَ الطُّرُقاتْ
وأُطاردَ وجهكِ
في الأمطارِ
وفي أضواء السيارات
علّمني حُبُّكِ..
كيف أهيمُ على وجهي.. ساعاتْ
بحثًا عن شعرٍ غجريٍّ
تحسدُه كلُّ الغجريّاتْ

بحثاً عن وجهٍ.. عن صوتٍ
هو كلُّ الأوجهِ والأصوات

أدخلني حُبُّكِ.. سيّدتي
مُدُنَ الأحزانْ..
وأنا من قَبلِكِ لم أدخلْ
مُدُنَ الأحزانْ
لم أعرفْ أبدًا..
أنَّ الدمعَ هو الإنسانْ
أنَّ الإنسانَ بلا حزنٍ
ذكرى إنسانْ..

علّمني حُبُّكِ
أنْ أتصرّف كالصبيانْ
أنْ أرسمَ وجهَكِ بالطبشورِ
على الحيطان
علّمني حُبُّكِ.. كيف الحبُّ
يُغَيِّرُ خارطةَ الأزمانْ
علّمني أنّي حين أُحِبُّ
تكُفُّ الأرضُ عن الدّوران
علّمني حُبّكِ أشياءً
ما كانتْ أبداً في الحُسْبَانْ
فقرأتُ أقاصيصَ الأطفالِ

دخلتُ قصورَ ملوكِ الجانْ
وحَلِمْتُ بأن تتزوّجَني
بنتُ السُّلطانْ
تلكَ العَيْنَاها
أصفى من ماء الخُلجانْ
تلكَ الشَّفَتاها
أشهى من زهرِ الرّمْانْ
وحَلِمْتُ بأنّي أخطفُها مثلَ الفرسانْ
وحلمتُ بأني أُهديها أطواقَ اللؤلؤِ والمرجانْ
علّمني حُبُّكِ، يا سيّدتي، ما الهذيانْ
علّمني.. كيف يمرُّ العمرُ
ولا تأتي بنتُ السلطانْ...».

رغد: الحبّ في شعرك المتقدّم ليس مجرّد عِشقٍ، إنه فتح، كشف، تحطيم للأسوار، مغامرة لتحرير الآخر من الظلام..

نزار: لأن المرأة بالنّسبة لي ليست جارية وليست عارًا يجب أن يوارى، إنها نصفي المكمّل، النصف الذي لا تكمل إنسانيتي إلا بوجوده..

رغد: لهذا دخلتَ إلى مخدعها وأخرجتها إلى النور.

نزار: أحببتها، فغنّيت لها، وتغنّيتُ بمفاتنها، وتحدّثتُ بلسانها وأظهرتُ حقها في الحرية.

رغد: فظهرت في قصائدك الموضوعات المتنوعة التي تعرض لواقع المرأة في العالم الثالث، المرأة التي فُرض عليها أن تكون مستضعفة مستكينة انسجامًا مع مفهوم الأنوثة.

نزار: كقصائد (حبلى، وأوعية الصديد، وإلى أجيرة، والحب والبترول). إنها تشهير واحتجاج على شريعة الاحتكار والأنانية التي تتحكّم بالمجتمع العربي في علاقاته العاطفية والجنسية..

رغد: لذلك أطلقوا عليك اسم شاعر الفضيحة؟

نزار: لأنني شاهد رئيسي على كل الجرائم العلنية التي يرتكبها الرجل وتنزل عقوبتها على جسد المرأة..

انظري قصيدة الحب والبترول، إنها صورة للإقطاع العاطفي وللعلاقة اللاأخلاقية التي تقوم بين رجل يَستملك بدفتر شيكاته، وامرأة تُستَملك بسنابل شعرها الذهبي وطفولة نهديها.

أنا نقلتُ الواقع العربي في تعامله مع امرأة ولم أخترعه من عندي.

تلملم رغد الأوراق والكتب، وترجعها بفوضى إلى رفوف المكتبة، تحمل بعض أشرطة الكاسيت وتقول له، سننعم الآن برحلة جميلة على شاطئ البحر.. سنتمشى ثم سأوصلك إلى الفندق.

نزار مبتسمًا:

«فوضاكِ رائعةٌ
فظلّي هكذا
فأنا أحبكِ في غموضِكِ
في وضوحكِ
في ظهورك
في اختفائِكِ
في تجلّيكِ الجميلِ
وفي حضارتك الفريدهْ».

أطفال الحجارة

السّيارة تبتلع الطريق السّاحلية إلى الجنوب وصوت فيروز ينطلق من المسجّل.

رغد: ستقدّم الليلة «قصيدة أطفال الحجارة»؟

نزار: وسأقدِّم بعدها بعض شعري الممنوع.

رغد: تقصد قصيدة «متى يعلنون وفاة العرب».

نزار: نعم.

رغد: هذه القصيدة قد أثارت عليك حربًا شرسةً من الكثير من الشّعراء والنقاد والصحفين.

نزار: لأنها كانت صادقة وحقيقية، ومشكلتنا نحن العرب في نرجسيّتنا المتضخمة التي تمنعنا من أن نرى وجهنا على حقيقته، وعمرنا على حقيقته وقبحنا على حقيقته.

رغد: ولكن هناك الكثير من الأدباء الذي دافعوا عن موقفك وعن قصيدتك، تفضّل اقرأ ما كتبه الشاعر فاروق جويدة.

نزار يأخذ الورقة من يدها ويبدأ بالقراءة:

"لم أكن أتصوّر أن يأتي علينا زمان نفقأ فيه عيوننا بأيدينا، ونغتال بلادنا رغم أنها آخر ما بقي على أشجارنا الحزينة في الزمن البخيل، وأن نطلقَ السّهام على صدورِ عشقت أوطانها حتى الثمالة وعاشت جراحها جرحًا جرحًا وحملت أمانيها أملاً أملاً، وغنَّت للعشق أجمل أغانيه، وغنَّتْ للوطن حين كان جديرًا بالغناء، وبكت على أطلاله حينما عصفت به رياح اليأس والفرقة"

نزار: شكرًا لكل رفاقي من الشّعراء والنقاد والصّحفيين والقرّاء العرب الذين حموني بحبهم الكبير ورابطوا معي في خندق واحد ضد الأميّين والانكشاريين. شكرًا.. لأنهم قرؤوا قصيدتي بوعي نقدي مدهش ورؤية ثقافية وحضارية متميّزة، واعتبروها قصيدة حبّ بالعرب لا قصيدة تشهير بهم، لأن العاشق الكبير لا يحترف الغشّ والنفاق وإلا كان مهرّجًا كبيرًا وكاذبًا كبيرًا.

وصلا إلى صور حيث تقام الأمسية، المكان يغصّ بالناس من كلّ الأعمار، يتقدّمون إلى الشّاعر ويرحبّون به.. يقدّم لهم ابتساماته ويصافح الكثيرين منهم..

يستقرّ نزار في المكان الذي سيلقي فيه الشّعر..

يحيّي الجمهور ثم يقول:

سأقرأ الآن مقاطع من «ثلاثية أطفال الحجارة»، هذه القصائد لم أكتبْها أنا، بل كتبها أطفالُ الحجارة بأصابعهم الصغيرة، النحيلة، الدمية.

هم الذين كتبوا، هم الذين ألَّفوا، وهم الذين نزفوا، وهم الذين أمروني، فأطعتْ، وحَرَّضوني فصرخت..

تصفيق حادّ في القاعة، ثم صمت بانتظار الشاعر:

«بهروا الدنيا
وما في يَدِهِمْ إلا الحجارهْ..
وأضاؤوا كالقناديل
وجاؤوا كالبشارهْ
قاوموا
وانفجروا..

واسْتُشهدوا
وبقينا دُبَبًا قُطبيَّةً
صُفِّحَتْ أجسادُها ضِدَّ الحرارهْ
قاتَلُوا عَنَا..
إلى أن قُتِلوا
وبقينا في مقاهينا
كَبَصَّاقِ المحارَهْ..
واحدٌ..
يبحثُ منّا عن تجارهْ
واحدٌ..
يطلبُ مليارًا جديدًا..
وزواجًا رابعًا
ونهودًا صَقَلَتْهُنَّ الحضارهْ
• • •
آهِ.. يا جيلَ الخيانات..
ويا جيلَ العُمُولاتِ..
ويا جيلَ النفاياتِ..
ويا جيلَ الدعارهْ
سوف يجتاحُكَ ـ مهما أبطأ التاريخُ ـ
أطفالُ الحجارهْ».

والآن مع قصيدة «الغاضبون»

«يا تلاميذَ غَزَّةٍ..
عَلِّمونا..
بعضَ ما عندكمْ
فنحنُ نسينا
عَلّمونا..
بأن نكونَ رجالاً
فلدينا الرجالُ
صاروا عجينا..
علِّمونا..
كيف الحجارةُ تغدو
بين أيدي الأطفالِ
ماسًا ثمينا..
كيف تغدو
دَرَّاجةُ الطفلِ، لُغْمًا
وشريطُ الحريرِ
يغدو كَمينا
كيف مَصَّاصةُ الحليب،
إذا ما اعتقلوها
تحوَّلتْ سِكّينا..
يا تلاميذَ غَزَّةٍ
لا تُبَالوا..

بإذاعاتِنا..
ولا تسمعونا..
اضربوا
اضربوا
بكلِّ قواكُمْ واحزِموا أمرَكُمْ
ولا تسألونا..
نحن أهلُ الحسابِ
والجمعِ
والطرحِ
فخوضوا حروبَكُمْ
واتركونا
إننا الهاربونَ
من خدمةِ الجيشِ،
فهاتوا حبالَكُمْ
واشنقونا..
يا تلاميذَ غزةٍ..
لا تعودوا..
لكتاباتِنا.. ولا تقرؤونا
نحن آباؤُكم..
فلا تشبهونا
نحن أصنامُكُمْ
فلا تعبدونا

نتعاطى
القاتَ السياسيَّ
والقمعَ..
ونبني مقابرًا
وسجونا..
حَرِّرونا..
من عقدةِ الخوفِ فينا..
واطردوا
من رؤوسنا الأفيونا
علِّمونا..
فنَّ التّشبُّثِ بالأرضِ،
ولا تتركوا..
المسيحَ حزينا
• • •
يا أحبّاءنا الصَّغار
سلامًا
جعلَ اللَّهُ يومكُمْ
ياسَمينا..
من شقوقِ الأرضِ الخرابِ
طلعتُمْ
وزرعتم جراحَنا
نِسرينا

هذه ثورةُ الدفاترِ

والحبرِ

فكونوا على الشّفاهِ

لحُونا..

أمطِرونا..

بطولةً، وشموخًا

واغسلونا من قُبحِنا

اغسلونا..

لا تخافوا موسى

ولا سِحرَ موسى

واستعِدُّوا

لتقطفوا الزّيتونا

إن هذا العصرَ اليهوديَّ

وَهْمٌ

سوف ينهارُ..

لو ملكنا اليقينا».

والآن مع قصيدة: «متى يعلنون وفاة العرب».

«أُحاوِلُ منذ الطفولةِ رسمَ بلادٍ

تُسَمَّى ـ مجازًا ـ بلادَ العربْ

تسامحني إن كسرتُ زجاجَ القمرْ

وتشكرني إن كتبتُ قصيدةَ حُبٍّ

وتسمحُ لي أن أُمارسَ فعل الهوى
ككلِّ العصافير فوقَ الشجرْ
أُحاولُ رسمَ بلادٍ
تُعَلِّمني أن أكونَ على مستوى العشقِ دومًا
فأفرشُ تحتكِ صيفًا، عباءةَ حُبّي
وأعصر ثوبكِ عند هطولِ المطر..

• • •

أحاولُ رسمَ بلادٍ لها برلمانٌ من الياسمينْ
وشعبٌ رقيقٌ من الياسمينْ
تنامُ حمائِمُها فوق رأسي
وتبكي مآذنُها في عيوني
أحاولُ رسم بلاد تكون صديقةَ شعري
ولا تتدخّل بيني وبين ظنوني
ولا يتجوّل فيها العساكرُ فوق جبيني
أحاولُ رسمَ بلادٍ
تكافئني إن كتبتُ قصيدةَ شعرٍ
وتصفحُ عني، إذا فاضَ نهرُ جنوني
أحاولُ رسمَ مدينةِ حُبٍّ
تكون مُحَرَّرةً من جميع العُقَدْ
فلا يذبحونَ الأنوثةَ فيها..
ولا يقمعونَ الجسد..
أحاولُ رسمَ بلادٍ

تُسَمَّى ـ مجازًا ـ بلادَ العربْ
سريري بها ثابتٌ
ورأسي بها ثابتٌ
لكي أعرف الفرق بين البلاد وبين السُّفُن..
ولكنهم.. أخذوا علبةَ الرسم منّي
ولم يسمحوا لي بتصوير وجه الوطن
أحاول بالشِّعرِ
أن أمسكَ المستحيلْ
وأزرعَ نخلا
ولكنهم في بلادي
يقصّون شعر النخيلْ
أحاولُ ـ سيّدتي ـ أن أُحبَّكِ..
خارجَ كلِّ الطقوسِ..
وخارجِ كلّ النصوصِ..
وخارج كلّ الشرائع والأنظمةِ..
أحاول ـ سيّدتي ـ أن أُحِبَّكِ..
في أي منفى ذهبتُ إليه..
لأشعرَ ـ حين أضمّك يوماً لصدري ـ بأني أضمُّ ترابَ الوطن.

• • •

أنا منذ خمسين عامًا
أُراقِبُ حالَ العرب
وهم يُرعِدونَ، ولا يُمْطِرون..

وهم يدخلون الحروبَ
ولا يخرجونَ..
وهم يعلكونَ جلودَ البلاغةِ علكًا
ولا يهضمون..
أنا منذ خمسين عامًا
أحاول رسمَ بلاد
تُسَمَّى ـ مجازًا ـ بلاد العربْ
رسمتُ بلون الشرايين حيناً
وحينًا رسمتُ بلون الغضب
وحين انتهى الرّسمُ، ساءلتُ نفسي:
إذا أعلنوا ذات يوم وفاةَ العربْ..
ففي أيِّ مقبرةٍ يُدفنون؟
ومَنْ سوف يبكي عليهم؟
وليس لديهم بنات..
وليس لديهم بنون..
وليس هنالكَ حزنٌ
وليس هنالكَ مَنْ يحزنون!!..
أحاولُ منذ بدأت كتابةَ شِعري
قياسَ المسافةِ بيني وبين جدودي العرب
رأيتُ جيوشاً.. ولا من جيوش
رأيتُ فتوحاً.. ولا من فتوح
وتابعتُ كلّ الحروب على شاشة التلفزة

فقتلى على شاشة التفلزة
وجرحى على شاشةِ التلفزة
ونصرٌ من اللّهِ يأتي إلينا
على شاشة التلفزة..
أيا وطني: جعلوك مسلسلَ رعبٍ
نتابع أحداثَه في المساء
فكيف نراكَ إذا قطعوا الكهرباء؟؟

• • •

أنا بعدَ خمسين عامًا
أحاولُ تسجيلَ ما قد رأيتُ
رأيتُ شعوبًا تظنُّ بأنّ رجالَ المباحثِ
أمرٌ من اللّه.. مثل الصّداع
ومثل الزُّكام
ومثل الجذام.. ومثلَ الجرب
رأيتُ العروبة معروضةً في مزاد الأثاث القديمِ
ولكنني.. ما رأيتُ العرب!!!».

تصفيقٌ حادٌ في القاعة، واستعادة لبعض المقاطع.. بعدها يغادر الشّاعر ورغد.. في السّيارة قالت له رغد: ما سرّ هذه الجماهيرية التي تتمتع بها..

يبتسم نزار ويقول: أنا شاعر أكتب قصيدتي وعلى الورقة البيضاء تطلّ وجوه مائتي مليون عربي، لو نقصوا واحدًا لاعتبرتُ نفسي مقصّرًا وذهبت إلى هذا الواحد معتذرًا..

الشّعب هو البحر الكبير الذي تنبع جميع الفنون منه وتصبّ على سواحله.

ولقد كان البحر دائمًا صديقي... على رماله الساخنة تمدّدت.. وبأصدافه الملوَّنة لعبت، وعلى صوت أمواجه غفوت..

صوت البحر.. أنساني متاعب الرّحلة، وهجمات القراصنة والأسماك المتوّحشة. صوت جمهوري علّمني التسامح والغفران، علّمني أن الشّعر موقف أخلاقي من كلّ الأشياء ومن كلّ الأحياء.. إنه طهارة من الدّاخل، وطهارة من الخارج.

رغد: ولكن القصيدة كانت قاسية جدًا فهي تُعَرّي الضعف العربيّ بشكل سافر..

نزار: إنَّ وظيفة الشّعر هي أن يعصف ويهتكَ ويقتحم ويرجّ هذا البحر الميت المليء بالأملاح والقواقع والطحالب والأسماك الميتة والأفكار المتكلّسة.. وظيفته أن يقفز كالحصان فوق حواجز النّار وأن يبقى دائمًا هجوميًا كسمكة قرش، ومتحفزًّا كنمر إفريقي..

رحلة مع الموت

كلّ ما في البيت الدمشقيّ يحمل آثار أناسٍ كانوا هنا ورحلوا بعيدًا تاركين في أعماق الشّاعر الطفل ألماً لا يُنسى وفقدًا تحوّل إلى أناشيد في الوفاء والحبّ..

صورة والد نزار ما زالت معلّقةً على الجدار، وقصيدة كتبها الشّاعر عند رحيل والده ما زلت موضوعة بالقرب من الصورة.. يأخذ نزار القصيدة ويقرأها:

«أماتَ أبوكَ؟
ضلالٌ.. أنا لا يموتُ أبي
ففي البيتِ منه
روائحُ رَبٍّ، وذكرى نبي
هنا ركنُهُ.. تلكَ أشياؤهُ
تفَتَّقُ عن ألفِ غصن صبي
جريدتُهُ.. تَبغُهُ.. مُتَّكَاهُ
كأنَّ أبي، بعدُ، لم يذهبِ
وصحنُ الرّمادِ.. وفنجانُه
على حالِهِ، بعدُ لم يُشْرَبِ
ونظّارتاهُ.. أيسلو الزجاجُ
عيونًا، أشفَّ من المغربِ

بقاياهُ، في الحجراتِ الفساحِ
بقايا النسورِ على الملعبِ
أجولُ الزوايا عليه، فحيثُ
أمرُّ.. أمُرُّ على مُعْشِبِ
أشدُّ يديه.. أميلُ عليه
أُصَلّي على صدره المُتْعَبِ
أبي.. لم يزلْ بيننا، والحديثُ
حديثُ الكؤوسِ على المشربِ
يسامرُنا، فالدّوالي الحُبَالى
تَوَالَدُ من ثغرِه الطّيّبِ
أبي، خبراً كان من جَنّةٍ
ومعنًى من الأرحبِ الأرحبِ..
وعينا أبي.. ملجأ للنجوم
فهل يذكرُ الشّرقُ عينا أبيَ؟
بذاكرةِ الصيفِ من والدي
كرومٌ.. وذاكرةِ الكوكبِ
أبي.. يا أبي.. إن تاريخَ طيبٍ
وراءكَ يمشي، فلا تعتبِ
على اسمِكَ نمضي.. فمن طَيّبٍ
شهيِّ المجاني إلى أطيبِ
حملتُكَ في صحوِ عَيْنَيَّ حتّى
تهيَّأ للنَّاسِ أنّي أبي

أشيُلكَ حتى بنبرة صوتي
فكيف ذهبتَ.. ولا زلتَ بي؟
إذا فُلَّةُ الدَّارِ أعطتْ لدينا
ففي البيتِ ألفُ فَمٍ مُذْهَبِ
فتحنا لِتموّزَ أبوابنا
ففي الصَّيفِ، لا بُدَّ، يأتي أبي»

رغد: جميل هذا الإحساس بوجود إنسان راحل منذ زمن بعيد، وربَما كان هذا الإحساس بوجوده سببه الشّبه الكبير بينك وبينه في كلّ شيءْ حتى إن النّاس يظنّون أنك هو بشكلك وبنبرة صوتكَ..

نزار: لا يمكن أن أكون في هذا المنزل إلاّ وأحسّ أنه سيدخل بعد قليل، سيتجوّل في الحجرات ويجلس على كرسيّه وتتساقط أقمار الياسمين فوق جريدته..

يغمض عينيه ويقول: إنّه هنا.. لم يرحل، ما زال صوته في كلّ مكان، وما زال صدره الحاني مستعدًا لاستقبالنا..

رغد: ولكن رحلتكَ مع الموت لم تنتهِ، فقد خطف الموت ابنكَ الشّاب توفيق.

نزار وغمامة من الدموع تغطّي عينيه:

أوه.. توفيق الأمير الدّمشقيّ الجميل..

إن موت الأطفالِ، مثل موت النّجوم ومثل موت البجع الأبيض، ومثل موت الأسماك الملوّنة في أوانيها البللّورية.. يخلع النفس ويطفئ قرص الشّمس.

رغد: عندما توّفيَ توفيق، أضربَ قلبكَ عن العمل فتوقّفَ معترضًا..

نزار: ولكنني انتصرت على الموت، والفنان ينتصر عندما يأسر اللحظات الخاطفة ويحنّط محتواها ويمنعها من التلف.

رغد: وعدت بتوفيق من لندن إلى دمشق، إلى بلاد العرب.

نزار: آه.. ما أروع الموتَ بين العرب، ومع العرب.. آه ما أروع الانتماء إلى القبيلة. إن موت توفيق أعادني بدويًا مُغرقًا في بداوته.. وردّني مرّة أخرى إلى بني هاشم.. وبني تغلب وبني مخزوم وبني تميم، وإلى كلّ أبناء العمومة والخؤولة الذين يقتسمون معك حياتكَ ويقتسمون موتك..

رغد: واستقبلته دمشق فاتحةً ذراعيها لتحضنه لينام بهدوء.

نزار: يغمض عينيه ويتذكّر:

يا ليتكم حضرتم عرس توفيق في دمشق...
كلُّ المآذنِ الدّمشقية رفعت أعناقها لترى توفيق..
كلُّ حمائم الجامع الأمويّ فرشت تحت رأسه أجنحتها البيضاء
كلّ أشجار الورد البلديّ في غوطة الشام، تركت بساتينها وركضت حافيةً لتعانقه..
كلُّ العصافير التي من عمر توفيق،
والتي ولدت معه وكبرت معه،
وذهبت إلى المدرسة معه، رافقت طائرته وهي تنزل.. تنزل..
تنزل كالدمعة على خَدِّ دمشق..

رغد بحزن: وشاركك العربُ كلُّهم حزنك على توفيق الأمير الدّمشقيّ..

نزار:

«يا مَنْ جعلتم موت ولدي موتًا عربيًّا، يا مَنْ
صرختم معي، وبكيتم معي، وأبحرتم معي إلى مرافئ الحزن.
يا مَنْ زرعتم سعف النخيل وأغصان الآس على قبر ولدي
أرجو أن تعتنوا بهذا الأمير الدمشقيّ الجميل الذي كان طويلاً كالزرافة،
وعالي الرأس كصواري المركب».

رغد: هنيئًا لك هذا الصبر بعد الفقيد الغالي..

نزار: لقد ارتحتُ كثيرًا عندما شكوت حزني إلى أعظم سلطة قضائية يرجع إليها الإنسان وهي (اللـّه).

ومنذ رفعتُ أمري إليه.. بدأت أشعر بالراحة وأطمئن على أن توفيق يقيم في السّماء، وأنه منذ تركنا في السنة الماضية، وهو يلعب في حدائق اللـّه، وينام في بساتين اللـّه، وينزل في سياحة اللـّه.

رغد: الموت.. إنه الجرح الذي يتفتّح كلّما تذكّرناه.

نزار: لأن الجراحَ وحدها هي التي تملك ذاكرة قوية، أما الفرح فلا ذاكرة له..

رغد: وموت أمّكَ؟..

نزار بألم: كان إحساسي بفقدها كبير جداً، وفعلاً أحسست أنني قد عَرِيتُ وأصبحت وحيدًا وحيدًا، فكتبت يومها: «بموت أمي يسقط آخر قميص صوف أُغَطّي به جسدي، آخر قميص حنان، آخر مظلّة مطر. وفي الشّتاء القادم ستجدونني أتجول في الشوارع عاريًا.

فيا أمي. يا حبيبتي يا فائزة، قولي للملائكة الذين كلّفتِهم بحراستي خمسين عامًا أن لا يتركوني، لأنني أخاف أن أنامَ وحدي».

رغد: وأنتَ في كلّ مرة تمرّ بها بأزمة نفسية تشعر بعدها بالتشتت تلجأ إلى ترميم ذاتك عن طريق الذكرة والرجوع إلى الطفولة..

نزار بعد تفكير: لأن الطفولة تشكّل بالنسبة لي طوق النجاة الذي أتمسّك به كلّما عصفت الرياح واضطربت الحياة..

«وأرى نفسي ببستانٍ دمشقيٍّ ومن حولي طيورٌ من ذهبْ وسماءٌ من ذهب

ونوافير يثرثرن بصوتٍ من ذهب».

رغد: إنّها الولادة الجديدة والعودة إلى الطفولة بكلّ ما فيها من دعة وأمان:

«وإذا بالشّام تأتيني نهورًا ومياهًا وعيونًا عسليهْ
وإذا بي بين أمي ورفاقي وفروضي المدرسيّهْ»

نزار: الشّعر يا عزيزتي عندي هو المنجاة من المآسي والفجائع، والعزاء الذي جعلني أتماسك كالشّجرةِ الواقفة.

رغد: بالشّعر وحده استطعتَ أن تواجه الأقدار القاسية التي كانت لتحطّم أي إنسان، فعندما كتبت قصيدة بلقيس بعد وفاتها في انفجار السّفارة العراقية استطعت أن تفجّر الألم والثورة في داخلك وتجعلها شعرًا لم يبقَ بيت عربي إلاّ وبكى بلقيس معك وتألّم لألمك...

نزار: لقد كتبتُ قصيدة «بلقيس» بحبر القلب ودموع الحزن الكبير، فجاءت القصيدة مشحونة بالحب والحزن والثورة والغضب..

وعندما فقدتها عاد إليّ فقد الأم:

«وتركتِنا ـ نحن الثلاثة ـ ضائعينَ كريشةٍ تحت المطرْ
أتراكِ ما فكّرت بي؟
وأنا الذي يحتاج حُبَّكِ مثل (زينب) أو (عُمَر)»

رغد تقرأ:

«شكرًا لكم..
شكرًا لكم..
فحبيبتي قُتِلَتْ.. وصار بوسعِكُمْ
أن تشربوا كأسًا على قبر الشهيده
وقصيدتي اغتيلتْ
وهل من أُمَّةٍ في الأرض
ـ إلاّ نحنُ ـ نغتالُ القصيدة؟»

يتابع بحزن:

«بلقيسُ..
كانت أجملَ المَلِكات في تاريخ بابل
بلقيسُ
كانت أطول النخلات في أرضِ العرب
بلقيسُ.. يا وجعي..
ويا وجعَ القصيدةِ حين تلمسها الأنامل
هل يا تُرى..
من بعد شعرك سوف ترتفع السنابل؟
ها نحن يا بلقيسُ..
ندخل مَرَّةً أُخرى لعصرِ الجاهليّه
ها نحن ندخلُ في التَّوَحشِ
والتخلُّفِ.. والبشاعة.. والوضاعه
ندخل مَرَّةً أخرى.. عصور البربريّه

حيث الكتابة رحلة
بين الشّظِيّةِ.. والشّظيّة
حيث اغتيال فراشةٍ في حقلها
صار القضيّه..
بلقيس..
يا عطرًا بذاكرتي..
قتلوكِ في بيروت مثل أيّ غزالةٍ
من بعد ما.. قتلوا الكلام..
بلقيس..
ليست هذه مرثيّة
لكن..
على العرب السلام..
بلقيس..
كيف أخذتِ أيّامي.. وأحلامي..
وألغيتِ الحدائقَ والفصول..
يا زوجتي..
وحبيبتي.. وقصيدتي. وضياء عيني..
قد كنتِ عصفوري الجميل..
فكيف هربتِ يا بلقيس مني؟
بلقيس..
إنّ الحزنَ يثقبني
وبيروت التي قتلتكِ.. لا تدري جريمتها

وبيروت التي عشقتكِ..
تجهلُ أنها قتلتْ عشيقتها
وأطفأتِ القمر..»

غمامة من الدّموع الصامتة تغطي عيني الشّاعر، يصمت.
تتابع رغد:

«بلقيس..
إنَّ قضاءَنا العربيّ أن يغتالنا عَرَبٌ
ويأكلَ لحمَنا عرب..
ويبقَر بطننا عرب..
ويفتح قبرنا عرب..
فكيف نفرُّ من هذا القضاء؟
فالخنجرُ العربيُّ.. ليس يقيم فرقًا
بين أعناقِ الرجال
وبين أعناقِ النّساء..»

يتابع الشاعر:

«بلقيس..
إنْ هم فَجّروك.. فعندنا
كلُّ الجنائز تبتدي في كربلاء..
وتنتهي في كربلاء..
لن أقرأ التاريخ بعد اليوم
إنَّ أصابعي اشتعلتْ..

وأثوابي تغطّيها الدماء..
ها نحن ندخلُ عصرَنا الحجريّ
نرجع كلَّ يوم، ألف عام للوراء
البحر في بيروت..
بعد رحيل عينيكِ استقال..
والشّعر.. يسأل عن قصيدته
التي لم تكتملْ كلماتها..
ولا أحد.. يجيب على السّؤال
الحزن يا بلقيس
يعصر مهجتي كالبرتقالة
الآن.. أعرف مأزق الكلمات
وأنا الذي أخترعُ الرّسائل..
لست أدري.. كيف أبتدي الرسالة
السيفُ يدخلُ لحم خاصرتي
وخاصرة العبارة..
كلّ الحضارة أنتِ يا بلقيس والأنثى حضارة
يا بلقيس..
يا أحلى وطن..
لا يعرف الإنسانُ كيف يعيش في هذا الوطن
لا يعرف الإنسانُ كيف يموتُ في هذا الوطن..
ما زلتُ أدفع من دمي
أعلى جزاء

كيف أُسْعِدَ الدنيا.. ولكنّ السماء
شاءت بأن أبقى وحيدًا..
مثل أوراق الشّتاء..
هل يُولَدُ الشّعراءُ من رَحِمِ الشقاء؟
وهل القصيدة طعنةٌ
في القلب.. ليس لها شفاء؟
أم إنّني وحدي الذي
عيناه تختصران تاريخَ البكاء؟!..»

رغد: من قلب هذه المأساة خرجت أعظم القصائد.

نزار:

«ماذا يقول الشّعر يا بلقيس
في هذا الزمان؟
ماذا يقول الشعر؟
في العصر الشعوبيّ..
المجوسيّ..
الجبان..
والعالم العربيّ..
مسحوقٌ.. ومقموعٌ
ومقطوع اللسان..
نحن الجريمةُ في تفوّقِها
فما (العقد الفريد).. وما (الأغاني)؟؟

أخذوكِ أيّتها الحبيبةُ من يدي
أخذوا القصيدة من فمي..
أخذوا الكتابة.. والقراءة..
والطفولة.. والأماني..
بلقيس.. يا بلقيس..
يا دمعاً ينقط فوق أهداب الكمان
علّمتُ مَنْ قتلوك أسرار الهوى
لكنهم.. قبل انتهاء الشوط
قد قتلوا حصاني».

ممنوعةٌ أنتِ

السّيارة تنطلق بهما في طريق بلودان، وصوت كاظم بكل ما فيه من إحساس ونغمة حزينة ينطلق بقصيدة «ممنوعة أنت»..

رغد (مبتسمةً): معترض أنتَ دائمًا حتى في مرضكَ؟

نزار: وهل أسمح لهم بأن يصادروا أجمل ما في حياتي.. القلم والورقة والكتاب والوجه الجميل..

رغد: ولكنها الذبحة القلبية يا سيدي وكان لا بدّ من أن ترتاح قليلاً وتبتعد عن كلّ ما يثير ويزيد من وجع القلب..

نزار: لقد قلتِ «الذبحة».. هل تعرفين، لمجرّد إحساسي أنها أنثى فقد بدأت أتعامل معها بحبّ، وأتعلق بها كما أتعلق بامرأة مزاجيّة الأطوار فوضويّة المواعيد.

عندي إحساس أن ذبحة القلب هي امرأة..

امرأة من النوع الزئبقيّ والمتقلّب، الذي لا تعرف متى تكرهك ومتى تشتهيك..

امرأةٍ شهوانية، ومجنونة، تطارد مَنْ تختارهم من الرّجال وتغتصبهم اغتصابًا علنيًّا حيث تجدهم، في المقهى، في المكتب، في المصعد، في السّيارة، أو حتى على سريرهم الزوجيّ..

رغد (ضاحكة): ولمجرّد كونها امرأة فقد سامحتها على اقتحامها لك؟!.

نزار: أنا متأكّد أنها امرأة.. فهي كما ترين لا تقرب النساء أبدًا، ولا تتعاطى

معهنّ فعل الحبّ ولا تعاني من أيّ انحراف جنسيّ..
الرّجال فقط هم محطّ اهتمامها، وموضوع عشقها.
رغد: وبما أن الذبحة القلبيّة امرأة فهي لا تحبّ أن يشاركها أحد فيمن تختاره فتوعز إلى الأطباء بقائمة من الممنوعات.
نزار: قائمة الممنوعات كثيرة مع هذه العاشقة البربرية..
فأدوات التفكير ممنوعة فلا قلم ولا ورقة ولاجريدة.. المطلوب من مريض القلب إلغاء ذاكرته ونسيان الأسماء والأفعال وأدوات الاستفهام وحروف النداء، ونسيان نون النّسوة وتاء التأنيث لأنها تزيد من وجع القلب تسبّب للمريض أزمة رومانسية لا لزوم لها.
رغد: يا عزيزي.. رغم كلّ الممنوعات فإنك قد اجتزت مرضك بقدرة عجيبة وعاودت عطاءك الشعري بغزارة تدعو إلى الدهشة والإعجاب في آن.
نزار: نعم. لقد اجتزتُ محنتي كما يحصل دائمًا.. أوه، اسمعي كم الأغنية جميلة وكم الصوت معبّرٌ عن محنةٍ حقيقية.. أرجو أن تعيدي الشّريط إلى أوّله.
رغد تعيد الأغنية إلى أولها ويستمعان بهدوء إلى كاظم الساهر:

«ممنوعةٌ أنتِ
مِنَ الدُّخولِ يا حبيبتي عَلَيَّ
ممنوعةٌ
أن تجلسي أو تهمسي أو تتركي يَدَيْكِ في يَدَيَّ
ممنوعةٌ أن تحملي لي دميةً أُحِبُّها
أو تقرئي لي قصةَ الأقزامِ والأميرةِ الحسناءِ والجنيّهْ

ممنوعةٌ أنتِ...

• • •

أغطيتي بيضاء، والوقت والساعات والأيام
كُلُّها بيضاء
هل من الممكنِ يا حبيبتي أن تضعي
شيئاً من الأحمر فوق الشّفَةِ الملساء
أطلبُ أقلاماً فلا يعطونني أقلامْ
أطلبُ أيامي التي ليس لها أيّامْ
أسألهم برشامةً تدخلني في عالم الأحلام
حتى حبوبُ النوم قد تعوّدتْ مثلي على
الصَّحْوِ فلا تنام.
إن جئتِني زائرة
فحاولي أن تلبسي العقودَ والخواتمَ
الغريبةَ الأحجار
وحاولي أن تلبسي الغابات
والأشجار
ما يفعلُ المشتاقُ يا حبيبتي
في هذه الزنزانة الفرديّة
وبيننا الأبواب والحرّاس
والأوامر العرفيّة
ما يفعل المشتاقُ للحبِّ
وللعزف على الأناملِ العاجية

والقلبُ لا يزالُ في الإقامةِ الجبريّهْ
آه.. لا تشعري بالذَّنْب يا صغيرتي
فإنَّ كلَّ امرأةٍ أحببتُها قد أورثتني
ذبحةً في القلبِ.
ممنوعةٌ أنتِ».

القيروان.. وحديقة الشُّعراء

في جلسة شاعريّة وحيث البحر يغسل بأمواجه اللطيفة أقدام صخرة الروشة، والشّمس تلبس ردائها الأحمر مستعدّة للرحيل، نزار يفكّر في هذه المدينة السّاحرة ولكنّ رغد تريد أن تسمع أكثر منه رغم أن الوقت بالنسبة إليها هو وقت تأمّل وعشق مع البحر..

تسأله: هناك مدنٌ تأسرنا منذ اللحظة الأولى التي نراها فيها كما الأشخاص، فأيّ المدن أحسستَ أنّها الأكثر أسرًا للشاعر؟..

نزار بعد تفكير عميق: لم أعرف في حياتي مدينة تسكرُ وتترّنحُ، وتفقد صوابَها أمام الشعر، إلا القيروان..

لم أعرف مدينة تأكل شعرًا، وتشرب شعرًا، وتتنفّس شعرًا.. وتُرضع أطفالها حليب الشعر.. إلا القيروان..

بل لم أعرف مدينةً تعتقد أن الشعر هو الرسول والقدّيس والشفيع والمهدي المنتظَر.. إلا القيروان..

رغد: القيروان مدينة تفتح أبوابها لكلّ الشّعراء وتحبّهم وتقدّم لهم الكثير، أليست القيروان هي المدينة التي حفرت قصائد للشعراء العرب على جداريّة من الخزف الأزرق في قلب المدينة..

نزار وكأنه في حلم جميل: نعم.. كان هناك المتنبي وابن المعتز، وابن رشيق القيرواني، والشابي وأدونيس ونزار قباني..

تساقطت الحدود الجغرافية واللغوية والإقليمية وانتصرت (جامعة الشعر العربية) على (جامعة الدول العربية)... وخرج القائد الكبير عقبة بن

نافع من مسجده ليصافحنا واحدًا واحدًا.. ويهنّئنا على إنجازنا الوحدويّ العظيم. أوه.. أيتها الرائعة. قيروان الرائعة. نادرة هي المدن التي تتجمَّل بالشّعر، وتتكحّل به، وتغتسل بموسيقاه، وتلبسه غمامةٍ من القطن الأزرق على جسدها..

نادرة هي المدن التي تعتبر الشعر قدرًا مرسومًا على جبينها، وجزءًا من نبضها، ودورتها الدموية.

نادرة هي المدن التي لا تعرف من اللغات غير لغة الشّعر..

رغد: خبر حضاريّ رائع أن تقام في القيروان حديقة يُطلَق عليها اسم (حديقة الشعراء)...

نزار: نعم، خبر رائع أشبه بمسرح اللامعقول، يُنبئنا أن الشّعراء العرب صاروا يملكون في القيروان حديقة فيها أشجار نخلٍ ورمّان، وحور مقصورات في الجنان.

من كان يُصدِّق أنني سأجد بعد خمسين عامًا من احتراف هذا الموت المُلحَّن الذي يسمّونه الشّعر، عُشًّا صغيرًا أُخَبِّئ فيه بيوض قصائدي، قبل أن تأكلها الثعالب والثعابين، وشرطة الأمن الثقافي..

رغد: القيروان مدينة صغيرة في تونس الخضراء مهد الشّعر والشّعراء ومهد النّاس الذين يمارسون حبَّ الشّعر بالعلن..

نزار: نعم، تصوّري أنه في إحدى الأمسيات الشّعرية في حديقة عامة في تونس، امتلأت الحديقة على سعتها حتى ما عدتِ تجدين موطئ قدم، فإذا بالجماهير تتسلّلُ على الأشجار كالعصافير الدورية.

رغد: ليت الدّول العربية كلّها تقتدي بالقيروان الرائعة وتعود إلى أيام جاهليّتِها يوم كانت القصائد تعلّق بماء الذهب على جدران الكعبة..

نزار: إنّ الشّعر هو ديوان العرب وخلاصة وجدان الأمّة، وهو في كلّ زمان يمثّل موقعًا استراتيجيًا متقدّمًا من مواقع المقاومة..

رغد: وماذا عن الشّعر القديم والشّعر الحديث..

نزار: إنني في جانب الثورة دائمًا، شريطة أن تضيف هذه الثورة شيئًا إلى وجودي، لا أن تلغي هذا الوجود، وشريطة أن تمنحني أرضًا جديدة أقف عليها، لا أن تسلبني أرضي، وتقطع شجرة العائلة التي أنتمي إليها.

رغد: ولكن أنصار الشعر الحديث يرون أن الشعر القديم أصبح كلامًا قديمًا وساقطًا؟

نزار: للشّعر العربي عمق حضاري يمتدّ على مدى ألفي سنة، وهو جزء أساسي من تراث العرب الكبير، وإن ولاءنا للشعر العربي القديم ليس ولاءً مطلقًا، فنحن نعرف مواطن جماله، ومواطن قبحه، ونعرف مواضع ضعفه ومواضع قوّته.

ولكننا لا نسمح لأنفسنا ولا للآخرين بإعدام ديوان الشّعر العربي كلّه بحجّة التقدميّة والثورية.

رغد: والثورة على الشّعر القديم؟

نزار: إن أول شرط من شروط الثورة هو أن يكون وراءها قضية، وأهم ما يميّز الثائر هو أنه يحمل تصوّرًا واضحًا للمستقبل، وفي غيابٍ مثل هذا التصور يصبح الانقضاض على التراث بصورة مجانيّة وغوغائية عملاً من أعمال التخريب.

رغد: إذن فبرأيك أنه لا بدّ من تقديم البديل مباشرة للشيء الذي نثور ضدّه..

نزار: نعم لأن تحطيم الأشياء بدافع التشفّي والسادية والعدوان على التاريخ لمجرّد أنه تاريخ، جريمة تنطبق عليها كلّ أوصاف الجريمة العلنية..

رغد: واللغة النزاريّة.

نزار يبتسم: جميلة هذه النسبة.

رغد: يقال إنّه لو سقطت ورقة من نزار قباني في الأتوبيس وعليها كتابة لحملها أوّل راكب يلتقطها وأوصلها إليه..

يردّ مبتسمًا: أعتبر هذا الكلام وثيقة ثمينة وشهادة هامة.. فشيء رائع أن أمتلك لغة خاصة أصبحت ملتصقة بي ومشابهة لشخصي كجواز سفر يردّه الناس إليّ إذا ضاع مني..

رغد: إذن فأنت تزعم أنك اخترعت لغة جديدة؟

نزار: لا.. أنا لا أزعم هذا، فاللغة ليست أرنبًا يخرج من قبعة الحاوي، ولكنني أسمح لنفسي بأن أقول إنني طرحت في التداول لغة موجودة على شفاه الناس ولكنهم كانوا يخافون التعامل بها.

كلّ ما فعلته أنني أقنعت الشّعر بأن يتخلّى عن أرستقراطيته ويلبس القمصان الصيفيّة المشجّرة، وينزل إلى الشّارع ليلعب مع أولاد الحارة ويضحك معهم ويبكي معهم.

رغد: ونجحت، لأن الشّاعر هو الذي يحرّك اللغة ويطوّرها ويعطيها هويّة العصر..

نزار: لا بدّ من المغامرة، فكلّ إبداع مغامرة، والشّاعر الذي لا يدخل كلّ يوم في مغامرة جديدة مع اللغة التي يكتب بها، يسجن نفسه في دائرة من الطبشور تضيق عليه يومًا بعد يوم حتى تقتله.

رغد: ورغم تأثّرك بالأبجدية الدّمشقيّة، فإن قاموسك الشّعريّ لا تنتمي مفرداته لأرض معيّنة أو وطن معين؟

نزار: هذا طبعًا بسبب حياتي الدبلوماسية وتنقّلي من بلدٍ لآخر.. فأنا

في شعري أحمل جنسيات العالم كلها وأنتمي لدولة واحدة هي دولة الإنسان..

نزار: إنّ اصطدامي بالعالم وبالمدن، واللغات والثقافات، جعل ذاكرتي كذاكرة آلة التصوير لا تنسى شيئًا ولا تهمل شيئًا.

رغد: إنّه مخزون هائل من الخطوط والألوان والأصوات..

نزار: ومن سفري في داخل الإنسان وداخل الكتب تكوّن هذا القاموس الشّعري.

رغد: المهم أنّ لغتك الشّعرية هي لغة شعبيّة يفهمها كلّ الناس ولا يجدون مشقّة في التعامل معها.

نزار: لأنني عندما أكتب قصائدي فأنا أكتبها للناس في بلادي بمختلف المستويات ولا أتوجه إلى الخاصّة، وهذا الجمهور العربي هو قدري، وهو قدر أحبّه وأفتخر به.

رغد: وهو أيضاً يحبُّك ويعتزّ بوجودك.

دمشق معي

رغد مثابرة على الكتابة على أوراقها المتراكمة، نزار جالس ينظر في ألبوم الصور، دمشق.

تقول: دمشق معنا أينما رحلنا في داخلنا.

نزار: آه.. دمشق الجميلة..

«حبيبتي أنـتِ.. فاستلقي كأغنيةٍ
على ذراعي ولا تستوضحي السَّبَبا
أنـتِ النساءُ جميعًا.. ما مِن امـرأةٍ
أحـببـتُ بـعـدكِ إلا خِلْتُـهـا كَـذِبـا
يا شامُ.. إنَّ جراحي لا ضِفافَ لها
فمَسّحي عن جبيني الحـزنَ والتعبَا
وأرجـعـيـنـي إلى أســوار مدرستي
وأرجـعي الحـبرَ والطبشورَ والكُتُبَا
تلكَ الزواريبُ، كم كنزٍ طمرتُ بها
وكـم تـركـتُ عليها ذكـريـاتِ صِبا
وكـم رسمتُ على حيطانِها صُـوَراً
وكـم كـسـرتُ على أدراجـهـا لُعَبَا
أتيتُ من رَحِم الأحـزان.. يا وطني
أُقَـبِّـلُ الأرضَـ والأبــوابَ والشُّهُبَا
حُـبِّـي هـنـا.. وحبيباتي ولِــدْنَ هنا
فمن يُعيدُ لِيَ العمرَ الـذي ذَهَـبـا»

رغد: إنها دمشق التي تقول فيها:

«كتبَ اللـَّه أن تكوني دمشقًا
بكِ يبدا وينتهي التكوينُ
لا خيارٌ أن يصبحَ البحرُ بحرًا
أوَ يختارُ صوتَهُ الحسّونُ؟»

نزار: نعم.. إنها هي..

«سلامٌ على ياسمين دمشق
يعربشُ حينًا على كَتِفَيَّ
وحينًا على شرفاتِ الغمام
ويجعلني ملكًا أُمَويًّا
ونافورةً في بيوتِ الشَآمِ»

رغد تلملم الأوراق الكثيرة التي دَوَّنت عليها ماقاله الشاعر من أشعار وأقوال..

يسألها: ولماذا تتعبين نفسك بجمع كلّ هذه المعلومات ودواويني كلّها موجودة ومتوفرّة للجميع.

رغد: لأنني بصراحة أريد أن أجمع أهم ما كتبته وقلته من شعر في كتاب واحد..

أتعلمُ أكثر ما يؤسفني هو أن أسمع مَنْ يقول عنك: نزرا شاعر المرأة أو الشّاعر الإباحي أو شاعر الفضيحة والجنس..

وأتأسّف أكثر عندما لا يعرف الجيل الجديد أن لديك هذا الكمّ الكبير من أشعار في الوطن وقضاياه.

نزار: معك حقّ، أكثر ما يؤلم الشّاعر أن يوضع في خانة محدّدة وتحت عنوان واحد..

رغد: نزار قباني الشّاعر الكبير الذي غرس في أعماقنا بساتين ورد وحدائق فلّ، الشّاعر الذي عَبَّر بقصائده عمّا نشعر به من حُبٍّ ورغبة وشوق، الشّاعر الذي عَبّر عن آلامنا في وطننا الكبير، والذي مع قصائده بكينا انكساراتنا وهزائمنا..

لا بُدَّ أن يعرف الجميع كلّ شيء عن الشّاعر الذي بفضله استمرّ الشّعر العربي مقروءًا ومسموعًا وعلى نطاق واسع.

أعلمت الآن لماذا أجمع وأكتب وأُدوِّن؟

نزار:

«إنّي أضـــأتُ.. وكـم خَلْـق أتــوا ومضوا
كـأنّـهـم في حســابِ الأرضـــ مـا خُـلِـقـوا
الـيــوم بـضــعـةُ أزرار سـتـعـقُـبُـهـا
أخـــرى وفي كــلّ عــام يـطـلـعُ الــورقُ»

رغد: إنّ النقش في الذاكرة هي عمل الشّعراء الذين يتغلبون على الزمن ويواجهون الفناء بالخلود، وأنت قد نقشت في ذاكرة هذه الأمة القصائد الخالدة وأرجعتَ للشّعر قيمته الحقيقية ورسالته العظيمة..

نزار: فأنت تحبينني إذن..

رغد مبتسمة: نعم.. أحبّكَ عن معرفة، وهذا ما أريد للآخرين أن يفعلوه، أريدهم أن يحبّوك لا لقصيدة في الغزل أو العشق قلتَها ولكن أريدهم أن يعرفوك ويعرفوا دورك الهام في الشّعر وقد أعلنتَ أنت في ديوانك الأول

(قالت لي السّمراء) في قصيدة (ورقة إلى القارئ) أسلوبك ورسالتك في الفن..

نزار يقرأ القصيدة:

«كَـمَـيـسِ الـهـوادج.. شـرقـيـةً
تَـرُشُّ على الشمس حلوَ الحِـدَا
كـدنـدنـةِ الـبـدو فـوق سـريـر
مـن الـرمـل، يـنـشـفُ فـيـه الـنِّـدا
ومـثـلَ بـكـاء المـآذن، سـرتُ
إلى الـلـّهِ أجـرحُ صـحـوَ المـدى
أُعـبِّـئُ جيبي نجـومًـا.. وأبـنـي
عـلـى مـقـعـد الـشّـمـس لي مقعدا
ويـبـكـي الـغـروبُ عـلـى شرفتي
ويـبـكـي.. لأمـنَـحَـهِ مـوعـدا
شـراعٌ أنـا لا يـطـيـقُ الـوصـولْ
ضـيـاعٌ أنـا لا يـريـدُ الـهـدى
حـروفي، جـمـوعُ الـسـنـونـو، تمدُّ
عـلـى الـصـحـو، معطفَها الأسـودا
أنـا الحـرفُ، أعـصـابُـهُ، نبضُهُ
تمـزّقُـهُ قـبـلَ أن يـولَـدَا
أنـا لـبـلادي.. لـنـجـمـاتِـهـا
لـغـيـمـاتـهـا.. لـلـشـذا.. لـلـنّـدى
سـفـحـتُ قـوارِيـرَ لـوني نـهـورًا

على وطني الأخضر المفتَدى
نتّفتُ في الجوْ ريشي، صعودًا
ومن شرف الفكر أن يصعدا
تخيّلتُ.. حتى جعلتُ العطورَ
تُرَى.. ويُشمُّ اهتزازُ الصّدى
بأعراقيَ الحمر.. امرأةٌ
تسيرُ معي في مطاوي الرِّدا
تفحُّ.. وتنفخُ في أعظُمي
فتجعلَ من رئتي موقدا
هو الجنسُ أحمل في جوهري
هيولاهُ من شاطئ المبتدا
بتركيبِ جسمَي جوعٌ يحنُّ
لآخرَ.. جوعٌ يمدُّ اليدا
عزفتُ، ولم أطلبِ النجمَ بيتًا
ولا كان حُلْمِيَ أن أخلُدا
إذا قيلَ عنى «أُحِسُّ» كفاني
ولا أطلبُ «الشّاعرَ الجيّدا»
شعرتُ «بشيءٍ» فكوّنتُ «شيئًا»
بعفويةٍ، دون أن أقصُدا
فيا قارئي.. يا رفيقَ الطريق
أنا الشَّفَةُ.. وأنتَ الصدى
سألتكَ باللَّه.. كن ناعمًا

إذا ما ضممتَ حروفي غدا
تذكّرْ.. وأنتَ تمرُّ عليها
عذابَ الحروف.. لكي توجَدا
سأرتاحُ.. لم يكُ معنى وجودي
فضولاً.. ولا كان عمري سُدَى
فما ماتَ مَنْ في الزمان
أحبَّ.. ولا ماتَ مَنْ غَرّدا»

وَداع

رغد في غرفتها جالسة على أحد الكراسي المريحة، وصورة بيت نزار قباني التي أرسلها لها الرسّام اليوم بين يديها، بينما مجموعة من الكتب متناثرة هنا وهناك وكتاب «قصتي مع الشعر» مفتوح أمامها..

صوت نجاة الصغيرة في أغنية (أيظنّ) ينطلق من المذياع، بينما خطيبها نبيل جالس يتأمّلها بابتسامة.. تنتهي الأغنية وتقع الصّورة من بين يديها، فتفيق من غفوتها..

تنظر فتجد نبيل يبتسم، تقول له: أنتَ هنا؟..

نبيل: ومَن غيري يدخل غرفتك في مثل هذا الوقت ويفاجئك وأنت تحلمين.

رغد: أوه.. من غفوةِ الحلم أفقت.

طيوف قصائد نزار تهوّم حولي كأنما ينبعثُ منها البخور والمسك والعنبر.

أجراس وهمهمات ونداءات خفيّة ممزوجة بموجة من الحزن الغامر..

يأخذ نبيل الصورة، يتأمّلها ويقول:

لا بد أنك كنتِ في بيته الدمشقيّ الجميل..

رغد: بل كنت معه في رحلة طويلة طويلة، في بيته، في بيروت، في دمشق وإسبانيا.. أوه كانت رحلة رائعة.

ثم تقول بحزن: ولكن لا بدّ من مواجهة الحقيقة، أن الشّعراء ـ كما البشر

ـ يموتون، فقد مات نزار قباني بعد رحلة طويلة مع الألم وأيضًا مع المجد والتدفّق والشّعر الأزليّ الخالد الذي لا يفنى..

نبيل: شيء ثابت على كلِّ حال يا حبيبتي، أن الإنسان يفنى ويزول وإنّما يبقى ما خلّف من أثر، ومن المؤكّد أن شعر نزار قباني سيظلّ ضَوَّاعًا ورنّانًا مُسكرًا سامرًا على مَرّ السنين..

نبيل ينظر إلى ساعته ويقول: لا بدّ أنك نسيت موعدنا، والمسرحية التي سنحضرها اليوم، هيا.. هيا..

تنظر إليه رغد برجاء وتقول: يا عزيزي، أرجوك ألا يمكننا أن نؤجّل المسرحية ليوم آخر، فلا بد أن أكتبَ الآن ما عشته في حلمي..

نبيل يَدَّعي نفاذ الصبر: حسناً يا عزيزتي، إنّ الشيء الوحيد الذي أسمح له باختطافك مني هو الكتابة ولا سيما إذا كنتِ ستكتبين عن شاعر الحب والجمال والحرية.. أليس هو مَنْ قال على لسان كلّ واحد منّا:

فـإذا وقـفـتُ أمـامَ حسـنكِ صـامتًا
فـالـصّـمـتُ في حَـرَم الجـمـال جـمـالُ
كـلـمـاتُـنـا في الحـبِّ تـقـتـلُ حُبَّـنـا
إنَّ الحـروفَ تـمـوتُ حـين تُـقـالُ حسبي
وحَـسْـبُـكِ أن تـظـلّـي دائـمً
سِـرًّا يُـمَـزَّقُـنـي ولـيـسَ يُـقـال

رغد تتقدّم منه وتعانقه بسعادة: أتعرف لماذا أحبك جدًا؟..

يسألها بدهشة: وهل هناك أسباب لم تبوحي بها بعد؟

رغد: نعم.. لأنك تحبّ عملي ولا تقف بيني وبينه، بل إنك تضحّي في أحيان كثيرة لتتركني مع أوراقي وكتبي.

يضحك نبيل: حسنًا، سأذهب الآن قبل أن تغيّري رأيك وتسحبي كلمات الحبّ التي غمرتِني بها.

النهاية

1999/16/6

الأعمال الأدبية للمؤلفة

1 ـ تحقيق مخطوط اعتلال القلوب للخرائطي (ت 327)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000

2 ـ فدوى طوقان، دراسة أدبية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.

3ـ مي زيادة، أديبة الشوق والحنين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.

4 ـ قاسم أمين، بين الأدب والقضية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.

5 ـ شرح ديوان جرير، مؤسسة النّور للمطبوعات، بيروت، 1998.

6 ـ شرح ديوان أبي القاسم الشّابي، مؤسسة النّور للمطبوعات، بيروت،1999.

7 ـ شرح ديوان حافظ ابراهيم، مؤسسة النّور للمطبوعات، بيروت، 2001.

8 ـ شرح ديوان امرئ القيس، مؤسسة النّور للمطبوعات، بيروت، 2000.

9 ـ موسوعة الحبّ والجمال والغزل، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1999.

10 ـ مجموعة قصص للأطفال عن الحواس الخمس، دار عون، بيروت.

11 ـ معجم أشعار العشق في كتب التراث العربي، دار قناديل للتأليف والترجمة والنشر، بيروت 2007.

12 ـ تقنيات التعبير في شعر عبد العزيز خوجة، دار قناديل للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 2004.

13 ـ شعر عبد اللّه باشراحيل، الدلالات الفنية والإنسانية، دار قناديل للتأليف والترجمة والنشر، بيروت 2003.

14 ـ الأدب الهادف في قصص وروايات غالب حمزة أبو الفرج، دار قناديل للتأليف والترجمة والنشر، بيروت2005.

15 ـ سلسلة أيام معهم:

1 ـ جرير، بيروت، ط1 1999.

2 ـ نزار قباني، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ط2 2000.

3 ـ محمد الفيتوري، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 2001.

4 ـ عبد العزيز خوجة، دار قناديل للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 2002.

5 ـ هدى ميقاتي، دار قناديل للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 2005.

16 ـ المتقن: جامع لدروس اللغة العربية، نحوها وصرفها، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

17 ـ المتقن في البلاغة والعروض، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

18 ـ معجم المترادفات، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

19 ـ معجم الإعراب للطلاب، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

20 ـ معجم الحروف والظّروف، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

21 ـ معجم الأسماء والضّمائر، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

22 ـ معجم الأفعال وتصريف الأفعال، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

23 ـ معجم الجموع والمثنّى، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

24 ـ علم البيان، دار الراتب الجامعية، بيروت2006.

25 ـ المعاني والبديع، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2006.

26 ـ المتقن في تبسيط اللغة العربية لطلاّب المرحلة الابتدائية، دار الراتب الجامعية، بيروت02006

27 ـ المتقن العملي في تبسيط الإملاء العربي لطلاّب المرحلة الابتدائية، دار الراتب الجامعية، بيروت،2006.

28 ـ المتقن العملي في تبسيط القواعد لطلاب المرحلة الابتدائية، دار الراتب

الجامعية، بيروت،2006.

29 ـ المتقن العملي في الاستظهار، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2006.

30 ـ أحلى ما قيل في الجمال، دار الكتاب العربي، بيروت ، 2005.

31 ـ أحلى ما قيل في الحكمة، دار الكتاب العربي، بيروت ، 2005

32 ـ تحقيق كتاب الإمتاع والمؤانسة، دار الكتاب العربي، بيروت ، 2005.

33 ـ كيف نحكي حكاية للأطفال، قناديل للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 2002.

34 ـ المشاركة في تحقيق كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

35 ـ مقالات في عدّة صحف ومجلاّت تهتمّ بالمرأة والطفل، وقصص للأطفال. ومقالات عن تحقيق التراث والمكتبات العامة.

36 ـ التربية والتعليم من خلال اللعب، دار الهادي، بيروت، 2005.

37 ـ معجم الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب، مؤسسة النخبة للتأليف والترجمة والنشر، بيروت 2007.

38 ـ معجم النُّخبة، مؤسسة النخبة للتأليف والترجمة والنشر، بيروت 2008.

الفهرس

تقـديم 5
في المنزل الدِّمَشـقِيّ 8
شـامُ، يـا شـامةَ الدنيـا 21
رائحة الوطـن 39
قـولي أُحِبُّـكَ 48
هـا هـي الشـام 67
خبـزٌ وحشـيشٌ وقمـر 90
في قصر الحمراء 95
شِعرٌ وأغنيّـة 103
بـين القـديم والجديـد 112
أطفال الحجارة 121
رحلة مـع المـوت 133
ممنوعةٌ أنتِ 145
القيروان.. وحديقة الشُّعـراء 149
دمشق معي 154
وَداع 160
الأعمال الأدبيـة للمؤلفـة 163